الجوهرة والقبطان

زوينة الكلباني

الجوهرة والقبطان

زوينة الكلباني

الطبعة الأولى : 2014 (مسقط)

الناشر:

بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:

alghshamoman@gmail.com

هاتف: 24398889 - 99260386

ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320

www.altakween.com

لوحة الغلاف :

الفنانة التشكيلية سميرة اليعقوبي

تصميم الغلاف :

سارة بنت سعيد العلوية

حقوق النشر محفوظة ولا يحق

إعادة الطباعة أو النسخ

إلا بإذن كتابي من المؤسسة

رقم الإيداع/

رقم الإيداع الدولي(ISBN):

الإهداء

إلى وطنٍ عَشِقَ المُغامرة وتاريخٍ يُدرِكُ أن عُمانَ والبحرَ
ذاكرةٌ أبديَّةٌ...

كَمْ من القراصِنَةِ سَفحوا أمجادَهم

على شواطئِكِ

المكتظة بنزيفِ الغُربَان

كَمْ من التُّجارِ والغُزاةِ

عَبروكِ في الحُلمِ

كَمْ من الأطفالِ منحوكِ جنونهم

مثل ليلة بهيجة

لعيدِ ميلادٍ غامضٍ؟

سيف الرحبي

الدرسُ الأول

مهلاً، لم أَعدْ أحتملُ.

(1)

ولدتَ وفي فمك ملوحة ماء البحر، إنه ملح الشقاء الذي تخضبتْ بملوحته روحكَ... بيتكم يتوسد البحر بين بيوتٍ قديمة مبنية من الطين، متناثرة بغير نظام، جارها الأقرب البحر... تُزيّنها نوافذ خشبية صغيرة، ملحق بها غرف أخرى مبنيّة من سعف النخيل... كلما تقدمتَ في العمر ترى المنازل في ازدياد وقرية حرامل[1] في توسع.. هذه القرية التي اصطفاها القدر لرحلة كفاح لا تنتهي... كانت وما تزال مملكة في عيون أبنائها الذين خلقوا من طينة الكدح، ونذرتهم للبحر... لقد وهبتكم هذه المنازل زرقة البحر... فصفتْ قلوبكم، واتسعتَ نفوسكم..

جمعتكَ أمواجُ حراملَ البكر بأصدقاء كُثر، ما تزال علاقتك قائمة معهم، مثل: محسن ذلك الصبي النحيل الذي ما تزال صورته عالقة في ذاكرتي، وهو يعدو حافي القدمين على رمال حرامل.

١- قرية ساحلية تابعة لولاية مسقط.

كانت تُشكِل لكم تلك الرمال عنصر إغواء، تتسابقون بالسير على تلك العجينة الرملية، وفي شغبٍ طفولي كنتم تتدافعون، يطبع كل واحدٍ منكم آثار قدمه فوق طبعة قدم زميله، ما كنتم تفترقون أبدًا، تَسْخرون بعمق من أصحاب مقاسات الأقدام الكبيرة، وعندما علمتم أن هموم الإنسان بمقاس قدمه... توقفتم عن ذلك وتحولتَ سخريتكم إلى شفقة وتعاطف.

فقراء كنتم ولكنكم مغامرون، بسطاء ولكن نفوسكم عالية... تُشبِهون البحر في صفائه وغضبه وعمق أسراره... قاسيتم الجوع، وتلذذتم بالفتات، واستمتعتم بجمع الأصداف، ومطاردة سراطين البحر بين الصخور... لا حدَّ لطاقتكم تصلون النهار بالليل والصباح بالمساء... متعتكم الاستثنائية البحر... الابتسامة لا تفارق وجوهكم حتى في ذروة أوجاعكم... ثمة أمل يتوهج ويتقد في داخلكم... دومًا متفائلون، تؤمنون بالغد، وتتطلعون للآتي.

والدك كان صيادًا؛ فتعلمتَ حرفة أهلك، هذه المهنة التي كان يتوارثها أجدادك كما يتوارثون قوارب الصيد، للبحر طقوسه وقوانينه التي تحكم رحلات الصيد، كما له مغامراته التي كانت والدتك تصوغ منها حكايات الطفولة، تلك الحكايات التي تنحني أمام سطوة البحر، كانت تمثل والدتك لكم كنزًا من الحكايات، والقصص، وأغاني البحر، ولقد غرستْ في نفوسكم من دون قصد حب البحر، طفولتكَ كانت البذرة الأولى لتكوّن شخصيتك الحقيقية.

ولما بدأتَ تفك شفرة الحروف، كانت قصص السندباد الغريبة حول طائر الرَّخِ والتنين وبلاد الواقواق والبحَّار الذي لا يُقهر، ويعود برغم الأهوال سالمًا هي الأحب لديك... وعندما كبرتَ أصبحتَ حورياتُ البحرِ محورَ الحديث في جلسات السَّمر مع الأصدقاء.

والدتك سرُّ البحر كما تُسميها، تُشبِّهُها بالبحر في عطائها اللامنقطع، تهَبُ بلا مقابل، إنها امرأة ذكية، تعدّتْ الستين ولكنها ذات شخصية قوية، كلمتها مسموعة بينكم رجالا ونساء، طالما كانت مرشدة لك في أدق تفاصيل حياتك برغم أنها أُميَّة، غرستْ في نفسك الثورة على البحر، وأن تكون بحارًا وليس صيادًا، كانت تحرضك من حيث لا تدري؛ دومًا تردد على مسامعك:

- يا بُني، الخيرُ موجودٌ في البحر، لا يكُنْ اقتناص السمك جُلّ همك كأبيك.

تشعرُ أن والدتكَ راضيةٌ عنك كل الرضا، وهذا الرضا مبعث توفيق الله لك الذي تُحسّه في أمور كثيرة.

(2)

وجدتَ في البحر متسعًا لأحزانك ولجنونك وتمردك، دائمًا البحر ملاذك تهرب منه وإليه، عشقتَ امتداداته... وكم شيَّدتَ من أمواجه أبراجًا شاهقة من الأماني والأحلام، إنه داؤك ودواؤك بل جنتك وجحيمك... خبرتَ أهواله بالفصول الأربعة... فأصبحتَ أنت والمخاطرَ توأمين.

وأنا مثلك كان لي طموحٌ وأحلامٌ... كم ساعةٍ قضيتُها على الشاطئ وأنا طفلة، أرمي الحجارة في البحر وأحلم، لم نعرف في طفولتنا سوى البحر، وما استعذبنا سواه، أفكارٌ كثيرةٌ كانت تُراودني... لطالما حلمتُ ببحار أظلُّ في عينيه دانة.

لم يكن خبر زواجي منكَ جديدًا، لطالما لمَّحت خالتي لأمي في مواقف شتى بأن سعاد لصالح، أمي تحترم والدتك وتقدرها فهي شقيقتها الكبرى، ولها معها مواقف لا تُنسى، الكل يعلم بأن صالح لسعاد وسعاد لصالح، كنتُ أفرُّ منك أينما وجدتكَ حياءً، منذ أن عملت في البحرية السلطانية العمانية وأنت بنظري البحَّار الذي لا يُقهر.. تُبهجني رؤيتك بلباس البحرية الناصع البياض، كم ساعةٍ قضيتها، وكم ليالٍ مرّت، وأنا أنسجُ من الأحلام قصورًا شاهقة، حتى همستْ خالتي في أذُن أمي يومًا:

ـ سعاد كبرت وصالح يريد الزواج.

كحلمٍ عذبٍ آتٍ في لحظةِ صحوٍ وقع في نفسيَّ الخبر، لم أنمْ ليلتها من الفرح، في كل أغنية أسمعها أو قصيدة عشق أقرأها تقفز صورتك في مخيلتي، أغزِلُ من خيوط الشوق والوله مواويلا.. أُميّزُ عِطرَك المختلف الذي يزيدكَ في مخيلتي غموضًا وسحرًا،إنك الحب الذي تفتحت عليه أحاسيسي باكرًا دون وعي مني.

كان التعليم في سبعينيات القرن العشرين بقرية حرامل التي يُسيّجها البحر والجبال أشبه بالجهاد، ذكرياتنا في القارب الذي يقلنا إلى مدرسة راشد بن النظر لا تُنسى.. إنها المدرسة الأقرب إلى حرامل، كنا نتناوب الدراسة فيها معكم، الصباح للبنين والمساء للبنات، الكثير من الفتيات ينعدم توازنهنَّ في القارب، كم مرة سقطت فيها حقائبنا المدرسية، ووقعت إحدانا في البحر تبتلُّ ملابسها وتعود إلى المنزل ومريولها ملتصقٌ بجسدها، كنتم الأوفر حظًا منا تذهبون وتجيئون بالقارب، أما نحن فالعم خميس صاحب الطراد كان يرفض العودة لأخذنا من المدرسة، نضطر للعودة إلى حرامل مشيًا من جهة الجبل... هناك خطونا أولى خطواتنا المتمردة، نخبئ الطباشير الملونة في حقائبنا، ونرسم على الجبل علم عُمان وننثرُ حوله أسماءنا... وعندما تثقلُ حقائبنا ظهورنا كنا نرميها من قمة الجبل لنجدها في السفح... ننزلُ بخطوات واسعة ثم ننحدر على شكل مجموعات مهرولين.

برغم تعب المسافة وعناء الطريق كان التعليم متعتنا، وبرغم تفوقنا غادرنا المدرسة باكرًا، الزواج المبكر كان مصيرنا... ولم يكن للحب دخل في زواج أية واحدة من صديقاتي... عندما أفكر بالأمر الآن أشعر أنني وأترابي كنا نختلف عمن في عمرنا من حيث الصلابة، والصبر، وقوة التحمل، حياتنا كانت عسرة وشاقة جدًا.

وأنتَ كذلك خرجتَ من المدرسة باكرًا لأسباب مادية قاهرة... لم تتعلم سوى مهارات لغوية بسيطة مكنتك من كتابة بعض العبارات التي حسبتها يومًا قصائد غزلية، كتبتها وما زلتَ تُخبئها وحينما عثرتُ عليها وواجهتكَ بها... ابتلعت لعابك فتحركت تفاحة آدم صعودًا وهبوطًا، ثم هبطت ضاغطة جلدة عنقك الطويل من الداخل كما لو أنها تكاد تشقها، وأقسمتَ أنني صاحبتها... وأنك كنت تكتبها لي... لم أكن أدرك وقتها شيئًا من أسرار القلوب وأمور الحياة.

أخذتني طفلة لم يتجاوز عمري الخامسة عشرة، كبرت معك، وما تزال الطفلة في أعماقي تنتظر الحنان والاهتمام الذي حملته في حقائبك، وبددته في أسفارك.. جئتك حالمة فوجدتُ حياتي تسيرُ بالمقلوب، وما زدتني إلا وحدة وغربة، لم يمضِ على زواجنا شهر واحد حتى تركتني محنطة على جدران الانتظار.. ارتبطت برحلة طويلة دامت أكثر من ستة أشهر.. رحلة وراء الأخرى، ودورات تدريبية متتالية، وأنا مقيدة بأغلال من الوحدة، ما كنت أدري أن هذا هو قدر من ترتبط ببحار... أن تعيش التشظي والاغتراب، وتتقلب على فراش الوحدة والحنين والاشتياق... تتوسد أمانيها وذكرياتها لا غير، وفي النهار تحمل أثقال المجهول المُفترِس ووساوسه..!.

في كل مرة تهمُّ فيها بالرحيل كنتُ أناشدكَ البقاء، وأستحلِفكَ:

- صالح، بحق كل سنوات الغياب لا تبتعد أكثر.. يكفي..!!!

لولا رحلاتك المتتابعة لكنا اختصرنا أيام البعد... فترات غيابك أورثت الوحشة بيننا... كنتَ تظهر وتغيب... كموج البحر... كالمد كالجزر، لقد كسرني غيابك الطويل كما تنكسر جرة من فخار... غريبة كنت معك، وغريبة من دونك... أصبحت الوحدة والعزلة كل شيء في

حياتي، عندما يمتلئ قلبي بالرماد لا خيار أمامي سوى الصمت والذوبان في سراب أحلامي... أنتظر الراحة التي لم تأتِ بعد.. تمرنتُ على ابتلاع الألم، ومضغ ذكرياتي المالحة... واللهاث وراء خيالاتي المقفرة... في قلبي فراغ لا ساحل له... كم تألمتُ وعانيتُ بسببك في صمت.

الصمت...!!

هذا الداء الذي استفحل في داخلي، فأخفيتُ وراءه جلَّ مشاعري..!

انغماسك في العمل، ومشاركاتك في السباقات الدولية للسفن الشراعية الطويلة لا تكاد تنتهي، عدا عن المهرجانات البحرية التي تقام سنويًّا في العديد من الدول الأوروبية، إبحارٌ متواصل، ونجاحاتٌ متلاحقة حصدتَ فيها جوائز دولية خلال سنوات متتالية، كانت لي دافعًا لمواصلة دراستي، حتى أكملتُ الجامعة، لا أنكر تشجيعكَ ودعمكَ الدائم لي في هذا المجال.

لا يُشبهك شئ سوى طعم غيابك، جمعتَ كل المتناقضات الحادة في الطباع، كريم بلا حدود، ومعطاء حد البذخ، وحينما يأتي الحديث عن الحبِ والشوقِ والحنين أجِدكَ بخيلا حدّ الشُح... صامتٌ... ساكنٌ معي، وثرثارٌ مع أمك وأخواتك وأسرتك لا تكاد تهمد... أحيانًا أشعرُ أنك تتعمدُ هجري وإقصائي... أقصيتني بعنف... وكأننا من برجين متنافرين في الطباع، لقد أخذتَ من البحر قسوته وغلظته، وساعات أخرى أرى أنه لا سقف لرقتكَ ورومانسيتكَ... طالما أسعدتني وأشقيتني، ولم تجلبْ لي من وراء البحار سوى القلق والكآبة والسهاد... وحينما ألومك تردد على مسامعي كل حين:

- سعاد، البحر هو رأسمالي الحقيقي.

الدَّرسُ الثاني

التقدير الكمي

(1)

بعد عودتك من بحر الشمال، تلقيتَ اتصالا من زكريا السَّعدي بوزارة الخارجية، يدعوك فيها لمقابلته لأمر عاجل ومهم، تم الاتفاق بينكما على الساعة العاشرة من صباح الغد في قنتب[٢].

سمعتَ وأنت في بحر الشمال البعيد عن مشروع عماني سنغافوري؛ لإعادة بناء سفينة عربية شراعية تعود إلى القرن التاسع الميلادي، وعندما عُدتَ إلى السلطنة أخبركَ أصدقاؤك عن بعض التفاصيل، كما هاتفك توم فوسمر مدير المشروع يسألك عن إمكانية المشاركة، ولكنك اعتذرت.

كنتَ قد قطعتَ على نفسك وعدًا بألا تخوض غمار البحر ثانية، ولقد عاهدتَ والدتك بذلك، لقد استنزفَ البحرُ الكثيرَ من طاقتك... واجهتَ الموت مرارًا، كنتَ قاب قوسين وأدنى من الموت... أتعبتك الرحلات المتتابعة، وأنهكتكَ المسافات الطويلة، عشرات العشرات من الأيام وأنتَ في عرض البحر على قوارب سباق شراعية صغيرة جدًا، لا

٢- قرية تابعة لولاية مسقط.

يتسع الواحد منها إلا لأربعة أشخاص.

ساعات النوم محدودة لا تتجاوز الساعتين في اليوم، وبالتناوب فيما بينكم، عمل دؤوب ومتواصل، ناهيك عن موجات الصقيع، والعواصف الثلجية العنيفة التي تصل درجة الحرارة فيها إلى أقل من اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، ويقترب مدى الرؤية فيها من العدم ... النومُ في العراء مقلقٌ جدًا من لسع البرودة... لا غذاء سوى الأطعمة المجففة... الأجواء مرهقة مع ضغط العمل، والأحوال الجوية التي تزداد سوءًا في بحر الشمال، وتكاد تسبب لكم حوادث مروعة، وتجلب نذر الشر.

وقصدتَ شاطئ قنتب، وصلتَ قبل الموعد المحدد بنصف ساعة، كان البحرُ في هدوئه ووداعته المعهودة، وزرقته الصافية... هذا الشاطئ طالما شاغبتَ رماله البلورية، وشاكستَ مياهه طفلا، كم ساعةٍ أنفقتها في الاستمتاع بالجولات البحرية في المراكب الصغيرة على هذا الشاطئ، قنتب هذه القرية الوادعة في أحضان الجبال، اصطفاها الخالق بهذه الهندسة الربانية المتفردة، كأنَّ الجبالَ وجدت؛ لتصدَّ عن المياه الرياح العاتية، فتحولتَ إلى بحيرة هادئة متلألئة... استهوى سحر المكان خبراء مشروع الجوهرة وصانعوها، فاتخذوه موقعًا لبناء السفينة.

الجزر الصخرية تتوزع بغير انتظام على مساحات قريبة من الساحل والتي تستقطب الطيور المستوطنة والطيور المهاجرة في مواسم هجراتها..

بين أحضان قنتب الوادعة كانت تستلقي الجوهرة، يا لمنظرها المهيب..! لكأن التاريخ قد ألقى ظلاله على هذه السفينة..!!

قشعريرة ما سرت في جسدك من جلالة الموقف ومهابة المنظر،

شعور لا يعرف كنهه إلا من عانقت روحه أجواء البحر، وتعطرت بعبق ملوحته...

تردد في داخلك:

ـ سبحان الله، الفكرة لا تبلى، تنتقل من جيل إلى آخر، ومن قرن إلى آخر..!!

التقيتَ زكريا السعدي الذي كان يتكلم بحرارة كبيرة عن الجوهرة، والتحضير لعملية الإبحار إلى سنغافورة، الحوار بينكما اتخذ مناحيَّ واتجاهات مختلفة، أخبرك بأنه قد وقع عليك الاختيار لتكون قبطان السفينة، كما أوقدَ في داخلك الشعلة الوطنية، وأشعرك بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقك.. حاولتَ أن تعتذرَ بلباقة، وأبديتَ استعدادك لترشيح شخصًا آخر، اقترحتَ له أسماء مختلفة، من بينهم: سعيد الشبيبي ضابط في البحرية السلطانية العمانية.

ولكنه رد عليك بهدوء وهو يتفرّس وجهك:

ـ صالح لا تتعجل الرد، لا أحدَ غيرك مخوَّل بحمل لواء هذه المهمة، إنك رائد الإبحار في السفن الشراعية بالسلطنة، وتصدرك في سباقات الزوارق الشراعية الدولية أكبر دليل على صحة كلامي، صالح إنها مسألة وطنية .. أمامك أسبوعان، استشرْ أهلك وفكِرْ في الأمر بتروٍ، ولا تنسَ أن الوطن يحتاج منا نكران الذات، لا نريد أن يقوم بالمهمة قبطان أجنبي.

لمست في حديثه دفئًا غريبًا، استأذن وانصرف، وأنت بقيتَ مسمّرًا مكانك، بلا شعور ترنو إلى الجوهرة... وعقلك يسافر في حلم

يقظة عميق..! تتنازعك أكثر من فكرة، تريد أن تُبحِرَ خارج حدود الزمان والمكان، وتعود بالتاريخ إلى الوراء قرون عدة... وأن تستعيد أمجاد السندباد.

نار الحيرة تأكلك، ليلتها لم تذقْ طعم النوم، ولم تجرؤ على وضع عينيك في وجه والدتك كنتَ تتحاشاها، وهي بفطرتها حدستْ بأن ثمة خطبًا يقلقك.

قمتَ بزيارة السفينة أكثر من مرة وعلى أيام متتالية، شيءٌ ما يجذبكَ إليها.. ثمة روح فيها، كلما فارقتها يشتد بك الحنين إليها.. شعرتَ بحب كبير نحوها، واستعرت في داخلك رغبة جامحة في معاودة ركوب البحر على ظهر هذه السفينة الفريدة من نوعها، متناسيًا البحر، ووجهه العاري، وملامحه القاسية، ازدادتْ الجوهرة حلاوة في عينيك، وارتدى الأمر ثوب البسالة في مخيلتك.

توسلات والدتك السابقة وأنت تهمُّ بالسفر في سفينة شباب عمان والدموع تتخثر في عينيها، تقفز إلى مخيلتك ... نظراتها وهي تستحلفك البقاء، وتشبثها بك وهي تودعك وداع الذي لا يؤوب... وكأنها المرة الأخيرة التي تراك فيها.

لن تنسى هيئتها وهي ترتعش بشدة من فرط الانفعال، وملامح الإرهاق والمرض بادية على وجهها، وأنت تعدها بأن رحلتك إلى بحر الشمال هي الرحلة الأخيرة، ولن تعود للإبحار بالشراع ثانية.

وجُلّ ما تخشاه الآن أن يُصيبها هذا الخبر بصدمة.

لم تكن يومًا زوجًا جيدًا، بل ابنًا بارًا بوالديه، دومًا تؤكد لي أن والدتك هي كل ذخيرتك في الحياة مصدر قوتك وضعفك، وإنني إذا أردتُ إرضاءك فعليَّ البر بأمك، كثيرًا ما توصيني خيرًا بها، برغم أنك تعلم قربها مني ومكانتها في نفسي إنها خالتي.

لفت انتباهي تشتتك، لم أترك لك مجالا للمراوغة حتى اعترفت، أخبرتني عن حلم الوطن وبقايا سفينة عربية تعود إلى القرن التاسع الميلادي عُثِر عليها قبالة جزيرة بليتانج الأندونيسية.

كانت السفينة قادمة من الصين، وفي طريقها إلى ماليزيا، والهند، وشبه الجزيرة العربية عندما غرقتَ، ألف ومئتا عام وبقايا السفينة في كنه الغيب حتى قيَّضَ الله لها صيادًا يبحث عن قوت يومه، فقامت شركة ألمانية عام 1998بإذن من الحكومة الأندونيسية باستخراج بقايا السفينة المطمورة تحت الأرض، وانتشال ستين ألف قطعة من الخزف الصيني النادر، والتي سُميت(كنوز التانج) نسبة إلى مملكة تانج التي حكمت الصين من بداية القرن السادس حتى القرن العاشر الميلادي.

ويضم الكنز قطعًا أثرية من البورسلين والخزف الصيني النادر بلونيه: الأزرق والأبيض، وأخرى مطلية بثلاثة ألوان، إضافة إلى ثلاثة صحون من خزف تشينجهوا وهو أجود أنواع الخزف الصيني الذي اكتشف حتى الآن، وتشير الكتابات التي وجدت على بعض القطع أن عملية صنع الخزف ونقله تمت في فترة ما خلال القرن التاسع الميلادي، وهذا ما

تؤكده اختبارات الكربون المشع التي استخدمت في قياس عمر الكنز، وماهية النقوش الإسلامية التي كتبت على تلك القطع بالخط العربي والتي توضح قدم الصلات التجارية بين الصين ودول العالم العربي.

استشعرت السلطات السنغافورية أهمية هذا الاكتشاف وقيمته التاريخية، فقررت شراء كنوز التانج بغية المحافظة عليها، كما تكفلت سلطنة عمان بإعادة بناء حطام السفينة الذي كان هشًا لدرجة يصعب فيها رفعه من قاع البحر.

برغم انبهاري بالحكاية، إلا أنني شعرتُ أن حماستك الزائدة تُخفي وراءها شيئًا، قرأتُ في عينيك حنينًا لمعاودة الإبحار، غلبتني غصة الدمع، تذبحني كلماتك حينما تبرر قراراتك بقولك:

ـ البحَّار يعلم أن نهايته ستكون في البحر؛ ولم لا تكون الآن وفي هذه المهمة الوطنية الجليلة.. ؟ أهداف هذه الرحلة مختلفة تمامًا عن رحلاتي السابقة سواء أكانت في سفينة شباب عمان أم الرحلات الأخرى في المسابقات الدولية.

لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء، برغم أن حدسي يخبرني أنك ستنجح ككل مرة... أظل أبكي بلا توقف... تأخذني في حضنك وأنت تهمس في أذني وبتوسل:

ـ سعاد، أحتاج إلى تشجيعك ووقفتك بجانبي؛ لإقناع والديَّ.

ران صمت ثقيل بيننا، قطعه نغمة صوت هاتفك، تلعثمتَ وخرجتَ

من الغرفة لترد على مكالمتك... الغصة تخنقني، والدموع تتقاطر من عينيَّ، أبكي من شدة الغيرة التي تلهب قلبي... كما أبكي من الوحشة، وأبكي من القهر.

لم تبذل جهدًا كبيرًا في إقناع والدك، لقد رحب بالفكرة، ورأى فيك أحلامه المنطفئة.. لطالما شدَّ من إزرك وقوَّى عزيمتك، قائلا:

ـ أهوال البحر تصنع الرجال يا بنيَّ، امضِ في حفظ الرحمن.

وجدتَ نفسك ممتنًّا لأبيك الذي جعلك منذ نعومة أظفارك تستشعر عظمة البحر، وفي صباح اليوم التالي جمعت إخوتك جميعهم عبدالله، ومحمد، وداود، وعمر، واستدعيت أختك أمينة أخبرتهم بأمر الجوهرة، وبعد أخذ ورد أجمعوا أنه مشروع العمر... والجوهرة ستحفر في ذاكرة الزمن، وعليك أن تتسلح بالإرادة والعزيمة لا غير.

اتفقتم أن تبدأوا بتسريب الخبر تدريجيًّا لوالدتك، اتقاء ردة فعلها السلبية، وقررتَ أن تأخذهم جميعًا لرؤية الجوهرة في قنتب.

لم تقلْ شيئًا عن ترشيحك لتكون قبطان الجوهرة، لكن لوالدتك حاسة عجيبة بل حدسًا غريبًا يفضح كل مخططاتك، برغم أننا اجتهدنا جميعًا أن نكون أمامها هادئين.

لم يدم انتظار الأسرة طويلا، بعد يومين تمكنت من استخراج تصريح لنا بزيارة السفينة، وصلنا قنتب، حيث كانت تبنى الجوهرة تحت الحراسة، وعليها سياج يحميها من عبث المتطفلين، الأمر الذي

أثار استغرابنا أن العمل بالجوهرة شبه مكتمل، والمشروع لم يسلط عليه الضوء إعلاميًّا، الكثيرون في السلطنة لا يعلمون شيئًا عن السفينة.

ومضى مدير المشروع توم فوسمر يحدثنا أن اكتشاف السفينة الأم والقطع الأثرية التي تحملها لها أهمية تاريخية كبيرة، متعة التاريخ تقع في التفاصيل، إنها تُقدِم دليلاً ملموسًا على وجود الطريق التجاري البحري بين شبه الجزيرة العربية والشرق الأقصى منذ القرن التاسع الميلادي، وأن بقايا السفينة الأم تُسهِم في تعميق فهمنا لأساليب الملاحة وصناعة السفن العربية في تلك الحقبة، كما تبين القطع الخشبية المستخرجة أن العرب استخدموا طريقة التشبيك بالحبال في صناعة السفن قديمًا، وقد بينت الاختبارات التي أُجريت على الخشب أن موطنه الأصلي غانا في غربي أفريقيا، أما موقع السفينة الأم فقد أوضح لنا الطرق البحرية التي سلكها الملاحون العرب في أسفارهم ذهابًا وإيابًا إلى الصين وهو ما يعرف قديمًا بطريق الحرير.

ومضى يبوح بسر هذه السفينة التي سميت جوهرة مسقط بأوامر سامية من صاحب الجلالة السلطان قابوس، ولماذا اختيرت سلطنة عمان بالذات لإعادة بناء السفينة؟ قائلا:

ـ منذ القرن الثالث قبل الميلاد وعُمان تمتلك أقوى الأساطيل التي عُرِفت بريادتها البحرية، ودورها الملاحي، وصلاتها التاريخية مع الحضارات القديمة، لاسيما الحضارات السومرية، والبابلية، والرومانية، والفرعونية في حقب مختلفة... لقد كان العمانيون في الطليعة بين رواد

المحيطات الذين اعتبرت مغامراتهم وأسفارهم مثلا يحتذى به في الإقدام والجرأة والشجاعة، لقد وجدت عمان نفسها على مفترق الطرق البحرية، الصين والهند شرقًا، والعراق في الشمال الشرقي، والبحر الأحمر وشرق أفريقيا في الجنوب الغربي.

خبرات قرون متراكمة تدلي برأسها وتطفو على السطح، وتتجلّى في الجوهرة التي أثبتت كفاءة العماني وقدرته على صنع أدوات الحياة، وهذا الشراع الثلاثي الذي يباهي الأفق بالجوهرة، استخدمه العرب قبل الإسلام للإبحار في المحيط الهندي، وأحدث ثورة في تصميم الأشرعة، فلقد تم تطويره خصيصًا ليتلاءم ومناخ المحيط الهندي الذي تهب عليه الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، والرياح الجنوبية الغربية، كما أسهم في تطوير الملاحة البحرية والإبحار عكس اتجاه الريح... لقد سبق العرب الأوروبيين في هذا المجال، حيث إنهم لم يتعرفوا الأشرعة الثلاثية إلا في القرن الخامس عشر حينما أبحر البحار البرتغالي فاسكودي جاما إلى الهند.

وعندما وقع نظري على صور بقايا السفينة الأم انتابني الكثير من القلق والخوف من المجازفة، وأتوقع أن الشعور نفسه انتقل إلى والدتك، ومن باب المداعبة اقترب أخوك عبدالله منها، وهمس في أذنها:

ـ أمي، ستفتخرين بابنك إن انضم إلى الجوهرة.

ـ أنا فخورة بابني في كل الأوقات، وعلى يقين بأنني أنجبت رجلا يتحدى الأهوال.

وبعد لحظات صمت، كشفتْ والدتك عن هواجسها حينما اقتربتْ منك، وهي تُخاطبكَ بلهجة تفيض حنانًا:

ـ صالح، لقد تولى من العمر أكثر مما بقي، لا تفجع قلبي برحيلك المتكرر، ولا تحرمني منك بطول أسفارك، الحياة ـ يا ولدي ـ غالية لا يسترخصها الإنسان، ولا يُفرِّط فيها مهما كانت الأسباب.

قبّلتَ رأس والدتك وابتسامة مطمئنة تستلقي على شفتيك، ثم خاطبتها بود:

ـ ولكن الله ييسر كل صعب، ويسهل كل عسير، وبقدر ما لاقيت من أهوال وصعاب كان فضل الله عليَّ عظيمًا... وبقدر ما نحتمل من الصعاب يكون نجاحنا في هذه الحياة..!! أليس هذا كلامك يا أمي؟!

لم تجبك، أشاحت بوجهها عنك وانصرفت.

وظلت طوال اليوم متجهمة عابسة، تذرع الصالة جيئة وذهابًا كأنها لم تستوعب بعد ما يجري، دعاؤها المتواصل يصمُّ آذانك، ويملأ روحك طمأنينة وسلامًا، لقد هدأت نفسها وسكنت بعد أن استخارت الله أكثر من مرة.. ساعتها شعرتْ براحة غريبة لم تشعر بها من قبل، وأصبحتَ نفسها هادئة كما لم تهدأ من قبل.

أما والدك فمنذ أن أخبرته بالأمر وهو يقرأ القرآن بلا توقف، وبعد مفاوضات مختلفة وأخذٍ ورد وتردد قبلتَ بالانضمام إلى الجوهرة، كان القرار لا يقبل التأجيل برغم علمك أن نسبة نجاحك ضئيلة جدًا...

وأنَّ إبحار سفينة شراعية بطريقة بدائية تعود إلى القرن التاسع الميلادي وسط الأنواء المناخية التي يشهدها المحيط الهندي تكاد تكون مخاطرة، سفينة بلا محرك وبلا رادار، والمحيط يمر بفترة أعاصير، كمن يُلقي بنفسه إلى الهلاك طواعية.

لا أدري ما الدوافع الحقيقية التي جعلتك تقبل العرض بهذه السرعة وقبل انقضاء المدة المحددة؟.

حينما أستعيدُ في ذاكرتي كل الخطوط تتضارب في صدري أشتات الظنون، الأمرُ أشبهُ بالأحجية، أتراه التكليف الرسمي من قبل الحكومة؟ أم هي الثقة العمياء في قدراتك وخبراتك الطويلة في مجال السفن الشراعية..؟ ناهيك عن الصخب والضجة الإعلامية التي قد تثيرها هذه الرحلة، وربما تبحث عن متعة استثنائية لا تجدها إلا في الإبحار بسفينة تعود إلى القرون الغابرة، هذا الحلم الذي دغدغ عقول الكثيرين منكم، وتطاول في داخلكم حد الدهشة، إنه حلم بعيد أن تقود سفينة عريقة مثل الجوهرة، سفينة بهذه المواصفات لا تُبنى إلا مرة واحدة في العصر، وشرف لك أن تكون القبطان بغض النظر عن المخاطر التي قد تكتنف الرحلة، تناسيت هذا الجانب كما نسيت وعودك لي ونظرات القلق والتوسل المنبعثة من عيون أطفالك، نظرتَ للمهمة من جانبها المضيء فقط، تريد أن تقتفي أثر السندباد، وتكون سندباد العصر.

(2)

شمسٌ تُشرِق وتُغرِب إيذانًا ببدء يوم وانتهاء يوم آخر، عمل متواصل وترتيبات لا تنتهي.. كبار رجال الدولة يتوافدون... يتابعون سير العمل... يتجمع الفريق بما فيه من خبراء ونجارين وحرفيين في قنتب جنبًا إلى جنب، العمل يمتد بهم إلى ساعات متأخرة من الليل...

لقد كان السيد بدر بن حمد البوسعيدي أمين عام وزارة الخارجية بمثابة الدينمو الذي يوقد شعلة الأمل والعزيمة وطموح التحدي في نفوسكم لايكاد يفارقكم لحظة...

لقد وجد البحارة في دفء احتوائه الصورة المفترضة لإنسانية المسؤل. سرعان ما غمرهم بحميميته وألفته في التواصل، وحرصه على محو كل الأسوار الشاهقة بينه وبين الآخر

وهبتَ الجوهرة والفريق كل ما أُوتيت من خبرة وذكاء فطري ومكتسب في تحديد الأولويات وما يستوجب عمله... أصبحت الجوهرة شغلك الشاغل... تنام وأنت ترتب في مخيلتك قوائم بما ينبغي عليك فعله قبل الإبحار وفي أثنائه، وعندما يبزغ النهار، تشعر وكأنك في دوامة، أمور كثيرة تحتاج منك إلى مزيد من الدقة والمراجعة، ولا شيء

يخرجك من غمرة العمل سوى فنجان قهوة مركز ينشط عقلك، ويعيد لك توازنك وهدوءك.

العديد من البحارة أعربوا عن قلقهم من البحر، وما ينضوي تحت ظلماته من لجج الرعب، وخوفهم من مغبة جموح الطبيعة، وانفلاتها اللامبالي، بدءًا من ثورات البراكين البحرية ووصولا إلى الأعاصير، وأعمدة الماء، قوى الطبيعة موتورة منذ بدء الخليقة وهي في حالة تواطؤ مستمر مع البحر ضد الإنسان، إنهم يتساءلون عن القراصنة، وتقلبات الأحوال الجوية، والحقيقة التي لا شك فيها أنكم ستبحرون دون مرافقة أية سفينة أخرى، لا رفيق لكم سوى الله والريح.

إن وجود خبراء مثل: توم، ولوكا، وإريك، مفيد جدًا، أضاف لخبرات البحارة العمانيين الكثير من الأمور الفنية، كل واحد من أفراد الجوهرة اكتسب خبرة في كيفية تشكيل الخشب بالمبرد والإزميل وبشكل لم يتعودوه سابقًا، وبالأخص النجارين الذين تعودوا على استخدام الآلات الكهربائية والمناشير، أما البروفيسور توم فوسمر فهو عالم في الآثار البحرية، ولديه اهتمام كبير بالتراث البحري لسلطنة عمان؛ لذا تم تعيينه مديرًا لموقع الجوهرة، لقد نجح في استيعاب الجميع بخبرته الروحية وحسه المرهف... يتحلى بالبساطة والجرأة والنزاهة، وهذه الصفات كما تراها أبسط مقوِّمات البحار.

كان عليك أن تنتقي بعناية رفقة قد تدوم صحبتهم أكثر من ستة أشهر، بحارة تثق بهم وخبرْتهم برًّا وبحرًا، لا تريد المجازفة بأسماء تتعرفها للمرة الأولى، ولا عهد لك بطباعهم وعقلياتهم.. اخترت أغلبية بحارتك من البحرية السلطانية العمانية، وهم: خميس الحمداني، وآدم البلوشي، وأحمد البلوشي، وأحمد العدوي، وسعيد الطارشي، ويحيى

الفراجي، عدا حسين الرئيسي من اليخوت السلطانية.

الجميع في سباق مع الوقت لإنهاء اللمسات الأخيرة لتجريب السفينة وإنزالها إلى الماء، مشاعر مختلطة بين الفرح والقلق تنتابكم، كثيرون تساءلوا فيما بينهم ماذا لو تعرضت الجوهرة لمشكلة ما أو لم تطفُ بالشكل الصحيح..؟!

لقد تم في تجارب سابقة نقل نسخة مصغرة من بدن السفينة إلى جامعة ساوثهامبتون في المملكة المتحدة؛ لإجراء بعض التجارب عليه في حوض مائي يحاكي الأحوال الجوية المختلفة في البحر.

أعلنت أنت وتوم فوسمر في تصريحات إعلامية مختلفة أن لديكم كثيرًا من خطط السلامة، وأنكما جاهزان للإبحار، كنتَ تحسب الساعات والدقائق حتى موعد المغادرة، تنتظر اللحظة التي ستبحر فيها، وترفع أشرعتك.

إن بناء سفينة شراعية يدويًّا في الألفية الثالثة من دون مسامير أو براغٍ أو صواميل كما كانت تُبنى السفن قديمًا، وأن تطرز ألواح الساج بعضها ببعض بالحبال، فذلك عمل إنساني جبّار يفوق كل التوقعات، لقد بلغت عدد الغرز في الجوهرة ١٢٧ ألف غرزة، استخدم في خياطتها ١٣٠ ألف كيلومتر من الحبال.

خياطة أخشاب السفينة تحتاج إلى دقة محكمة، وخطوات محسوبة عند شدِّ الحبال حتى لا ينقطع الخيط، وإذا أُرخيَّ ولو قليلا قد يؤدي إلى تسرب الماء في السفينة.

يقال إن العرب يعتقدون بوجود جبال مغناطيسية بأعماق المحيطات

السحيقة، ولهذا السبب كانوا يربطون أجزاء السفينة بخيوط يفتلونها من قشر جوز الهند؛ خشية أن يجذب المغناطيس المسامير التي تربط أجزاء السفينة، فتنفك أجزاؤها وتغرق بركابها.

ثمة فنيون بينكم يجربون الإبحار للمرة الأولى، إنهم في حالة ترقب لكل اجتماع، شهيتهم مفتوحة للمعرفة، وكل واحد منهم يريد التيقن من كل الاحتمالات والتكهنات التي تضطرم في رأسه، يدوِّنون ملاحظاتهم ومعلوماتهم المستجدة حول طبيعة الإبحار، مناقشات محتدمة وتساؤلات كثيرة تطرح في كل اجتماع،الحماس يسود الأحاديث، برغم أن أطياف الخوف والدهشة تلمع في العيون... أما أنتَ أيها القبطانـ فلديك مناعة تكفي للتحمل، رأيت من أهوال البحر وغدره الكثير الكثير...

لا يكاد يخلو أي اجتماع من اجترار بعض الذكريات حول المراحل الأولى في بناء الجوهرة، ففي كل اجتماع يحرص توم فوسمر أن يقدم المزيد ليغذي المشاعر والعقول، لقد تحدث وباستفاضة في اجتماعات سابقة عن وضع اللبنات الأولى بالجوهرة، بداية من التنظيم، والتخطيط، والتصميم ومرورًا بالتجارب وانتهاء بالمناقشات المطولة التي دارت مع نيك برننجهام مصمم السفينة حول الدليل الأثريـ بقايا السفينة الغارقةـ الذي كان يهتدي به خلال عمليات التصميم وإعادة البناء، والذي كان مبهمًا، وغامضًا، ومحيرًا في أحيان كثيرة، لقد واجه الفريق صعوبة في معرفة كيف استطاع بناؤو السفن القدامى من ثني الأخشاب التي تتميز بصلابتها وقوتها، لقد جربوا غمر الألواح في البحر ثم تسخينها، ولكن بلا جدوى لم يتمكنوا من ثنيها وتثبيتها في أماكنها المناسبة، وبعد محاولات واجتهادات مختلفة تبين لهم أن تعريض الألواح للبخار يسهل عملية

تشبيكها ببعضها بعض بإتقان تام، ولا شك أن القدامى كانوا يلجأون إلى هذه الطريقة بمهارة عالية.

كنت تنصت إليهم في عمق، لمح ذلك لوكا بيلفيوريتي، فأهداك ابتسامة عذبة، وهو يقول:

ـ جمالية الجوهرة وسحرها يتجسدان في رؤيتها، وهي تتشكل أمام عينيك، تتمازج فيما بينها قطعة قطعة لتظهر بهذا الشكل المتفرد، إنها رائعة، وأردف قائلا:

ـ أجل، إنها رائعة وعظيمة، لقد قرأتُ ذلك الشعور في عيون الجميع، كما لمسته في مدى ارتباط الفريق بالجوهرة، الكل يعمل بحب، أضحت السفينة مشروعنا الخاص.

ووجه حديثه نحوك:

ـ صالح إنك لم تعش معنا المراحل الأولى في بناء الجوهرة كانت فترة مخاض عسرة جدًا.. ما أروعها من أيام..! لقد فاتتك يا صالح، العبارة الأخيرة رددها الكثيرون على مسامعك أكثر من مرة وفي اجتماعات مختلفة.

كل من عرف لوكا بيلفيوريتي يقرُّ أن هذا الرجل لديه كاريزما خاصة وهو يتحدث، يُنقِّل نظراته بين الحضور وابتسامة حب تملأ ثغره.

ـ التأخير في وصول الخشب من غانا كان أكبر عائق واجهه المشروع في المراحل الأولى.

هذا ما قاله توم فوسمر وهو يتفرس وجهك، ومضى يسرد شيئًا من التفاصيل، والمواقف الطريفة في رحلة البحث عن الأخشاب في غانا:

ـ نزلنا في فندق يقع في مدينة صناعية صغيرة مكتظة بالغبار، تحضرني لائحة تعليمات النزلاء الغريبة بمدخل الفندق:"على النزلاء المحافظة على سلامتهم العقلية خارج الغرف".. وتابع ساخرًا:

ـ إنها نصيحة معقولة، لكن المحافظة على العقلانية طوال فترة البحث عن الخشب وعمليات القطع والنشر والشحن لم تكن بالأمر الهيّن، كانت فترة عصيبة ومحبطة بسبب تعقيدات الإجراءات الإدارية، وطول فترة تأخير استلام الأخشاب، لقد قضت الشحنة مئة وأربعة أيام حتى وصلت إلى ميناء السلطان قابوس بمطرح.

لم يستطع إياز الزدجالي أن يمنع نفسه من المداخلة، قائلا:

ـ الحمد لله أصبحتَ الجوهرة حقيقة ماثلة أمام أعيننا، لقد عملتُ سابقًا على بناء نماذج صغيرة من المراكب، والآن أجد نفسي أعمل على بناء سفينة حقيقية، وليست كأية سفينة.. إنها بمواصفات خاصة تعود إلى القرن التاسع! هناك فرق كبير.

وفي نهاية الاجتماع تلوتَ عليهم قائمة المحظورات النهائية في الإبحار بالجوهرة أهمها: منع تناول المشروبات الروحية، وشرب السجائر، ولقد علق على الأمر ألساندرو، قائلا:

ـ لا خمر ولا تدخين.. سيضيعنا دوار البحر...!!

الحياة في البحر لها قوانين، وعمليات ضبط وربط، تفرض شظف العيش، وقوة التحمل... وانتهى الاجتماع كالعادة بالعبارة التي يرددها إريك مقولة دوستويفسكي:« ما قيمة الحياة إذا كانت من أجل الحياة فقط لا من أجل فكرة أو هدف؟».

الدرسُ الثالث

الجوهرة تقتفي خُطى الأسلاف

(1)

الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا من يوم الثلاثاء السادس عشر من فبراير لعام ألفين وعشرة .. هذا الصباح ليس ككل الصباحات.. ثمة حدث مستلّ من ذاكرة الزمان، إنه الميلاد الثاني للسفينة المستنسخة الجوهرة التي يعود ميلادها الأول إلى القرن التاسع الميلادي، اليوم تنطلق جوهرة مسقط؛ متجهة إلى مرفأها الأول في كوتشين بجمهورية الهند، تقلُّ على ظهرها سبعة عشر بحارًا غالبيتهم من البحرية السلطانية العمانية، والبقية من الفنيين والخبراء الأجانب...

رئيس جمهورية سنغافورة جاء خصيصًا لحضور انطلاقة الجوهرة، أُلقيتْ الخطبة الاحتفائية بالمناسبة من السيد شهاب بن طارق آل سعيد.

وفود إعلامية عربية وأجنبية جاءوا من كل مكان لتغطية الحدث، لقد كان حفل الوداع مؤثرًا حضره كبار الشخصيات من الحكومة العمانية، وجمع غفير من المواطنين وأهالي البحارة، وطلاب المدارس المجاورة للميناء، الجانب التعليمي في المشروع يفتح آفاقًا واسعة

لطلاب المدارس والمعاهد، والجامعات، والكليات في فهم الملاحة البحرية قديمًا... النظرات معلّقة بالجوهرة... والأرواح خاشعة كأنها في صلاة، السفينة التي تقِلكم إلى التاريخ البعيد متينة جدًا.

المكان مكتظ بالمودعين ومن له علاقة بالحدث، حماس روحي جميل قرأته في عيون الجميع، تشعر بعظم المسؤولية.

الابتسامة تعلو الوجوه، والفرحة الجذلى تتهادى في المكان... تتمنى أن تلثم الأرض التي عليها يقفون، لا شيء يعدل حب عمان في داخلك، دموع منهمرة من عيون أهالي البحارة، دموع البيّن والخوف من المجهول.

في هذه اللحظة التي يفترض أن أكون أسعد مخلوقة على الأرض، كنتُ أختنق بدموعي بين الحضور... صفوف ممتدة، ومسافات طويلة بضجيجها وصخبها تفصلني عنك... أتنفس القلق والخوف والحزن... غربان كثيرة تنعق في روحي المتصدعة، أتابع ما أراه بعينين حائرتين، لا تكفان عن الدوران وهما ترصدان ما يحدث، وأبحث بين الحضور عن شيء مبهم... تململت من الوقفة، التعب حلَّ بجسدي، لستُ أدري أرجليَّ اللتان تحملان جسمي أم جسمي الذي يحمل رجليَّ؟!

لستُ أدري لماذا مخيلتي في مثل هذه المواقف لا ترسم سوى الصور السوداوية، والنهايات المفجعة؟.

لقد أثارت والدتك تعاطف المراسلين والمصورين، تركوا كاميراتهم

وهبوا نحوها.. كانت تبكي بحرقة وألم، ترتعش بشدة من فرط الانفعال، وملامح الإرهاق بادية على وجهها، لم أجد ما أخفف به مصابها سوى الدموع، بقينا متعانقتين نبكي.. إنها ليست خالتي فحسب بل أمي وجدت فيها كل الحنان... ومما زاد مخاوفنا أننا سمعنا أحد المراسلين الخليجيين، يستفهم زميله مستهجنًا:

ـ انظر ماذا تفعل عمان بأبنائها؟! إنها تُلقي بهم إلى التهلكة، محال أن تصل هذه السفينة التقليدية إلى سنغافورة أخالها، طموحات سرابية لاغير...!

لم تتمالك أمينة نفسها فصاحت في وجهه:

ـ هؤلاء حفدة أحمد بن ماجد لا خوف عليهم، وعمان متيقنة من كفاءة أبنائها، ومتانة الجوهرة التي وضعت فيها عصارة خبرات طويلة وسجل عماني حافل في عالم الإبحار، الجوهرة ستصل بإذن الله، وسيأتيكم خبر نجاحها، الأيام بيننا.

وهاهي الجوهرة تختال في عرض البحر، متسربلة بدلال سحرها.. وسط الأهازيج العمانية التقليدية، يسيرها هواء عليل سالكة طريقها، متحدية كل الظروف، واثقة بتوفيق المولى جل وعلا .

ابتعدت السفينة وأنت تلوح بيدك تلويحة حائرة، كأنك تفتش بين الوجوه عن وجه غائب، ما توقعته ألا يكون بين المودعين.. كنت تتفادى نظراتي بطريقة ملفتة، أحاول التحكم في ردة فعلي، ونبرة صوتي، وتعابير

وجهي، أتصنع الابتسام، وهذا قناع آخر أضيفه إلى أقنعتي هذا اليوم.

تواريتم عن الأرض المختزلة في مسامكم حتى أضحت السفينة بالنسبة لنا نقطة سوداء في عرض الأفق.. أحاول أن أقوي عزيمتي، لا يمكنني أن أواجه الدنيا بهذه الهشاشة وهذا الضعف..! كم أتمنى ألا أجترّ هذه الأحزان وأن أعيش معك زهو اللحظة، أشعرُ أن خفقات قلبي المتسارعة بدثْ مسموعة، أخبيء دموعي وأنسحب من المكان.

بينما مضت الجوهرة تمخر عباب المجهول، تُغني باسم الحب والحرية والسلام، وتغازل أروع ما في الحضارات إنسانيتها.

البحارة باختلاف طبيعتهم ولونهم وجنسيتهم يؤمنون بعظم المهمة التي نذروا أرواحهم لها، وأهمية الرسالة المكلفون بإيصالها.. وجدتموها فرصة سانحة؛ ليوفي كل واحد منكم بعض الدَّين للوطن.. دهشة الاكتشاف تتسامى في داخلكم، كثيرًا ما كنتَ تردد على مسامعي:

ـ إذا فقدنا دهشتنا نشيخُ باكرًا.

لقد جمعكم طموح واحد، كل منكم يريد أن يصنع لحياته معنى وقيمة، وهذا الأمر قد يكون مثارًا للقلق بدلا من أن يكون مثارًا للاتزان النفسي.

(2)

كل واحد منكم يشعر بأنه عاد ما يربو على ألف عام إلى الوراء، الأمجاد البحرية وأسماء مثل: ابن ماجد والمهري يلوحان أمام ناظريك كأنهما صور فوتوغرافية مكبرة .

أعلنت عن اجتماع تحدثت فيه عن الأساليب المثلى في اقتصاد مياه الشرب، ونوَّهت إلى ضرورة استخدام ماء البحر في غسل الأواني، وخلط الماء المالح بالعذب في الطبخ والوضوء، كما قدمت بعض الإرشادات للاقتصاد في استخدام المؤنة والطعام، وأن غسل الفواكه بماء البحر يبقيها مده أطول دون أن تفسد خاصة البرتقال والتفاح.

كما قمت بإعطاء الأوامر والإرشادات للبحارة قبل المناوبة التي تبدأ في الساعة الثانية عشرة ليلا، قسمت البحارة إلى مجموعتين:

مجموعة اليمين، وتتكون من: إياز الزدجالي، وسعيد الطارشي، وجيف، وساجد، وأحمد العدوي، ويحيى الفراجي، وإريك، ورُبرت.

مجموعة اليسار، وتتكون من: خميس الحمداني، وأحمد البلوشي، وآدم البلوشي، وحسين الرئيسي، وبوشبداس، وفهد الشعيبي، وإلساندرو،

وماثيو.

بدأت أعمال المناوبة بالمجموعة يسار والمخطط أن تستمر مناوبتها حتى الساعة الرابعة فجرًا، بعد ذلك تتحول المناوبة للمجموعة يمين... أخبرتهم أن هذا التوزيع سيظل ثابتًا طوال الرحلة.. عدا عن المهام اليومية التي تسند للبحارة في النهار.. البحارة يشعرون بالرضا من العدالة في تقسيم العمل وخبرة القبطان بالأمور الملاحية.

رائحة الطعام الشهية الحارة تملأ السفينة... الطعام على سطح الجوهرة له مذاق مختلف، إنكم معتمدون على الفحم في عمليات الشوي والطهي، الطعام الذي يعده أحمد العدوي لذيذا وشهيًّا، ويلاقي استحسان الجميع وإعجابهم حتى أنه علَّق على الأمر أنه سيفكر بامتهان الطهي.

كان الطعام يتناسب وطقس ذلك اليوم... كما قمتم بتجهيز أنوار الملاحة، وأدوات السلامة للحالات الطارئة، سرعة السفينة تتراوح بين عقدة ونصف وعقدتين منذ أن أقلعت الجوهرة والرياح هادئة، لم تتجاوز ثلاث عقدٍ.

وفيما أنت مطرق تدرس احتمالات الريح، ارتفع صوت أحمد البلوشي بنداء الحياة، يصدح بالأذان:

الله أكبر... الله أكبر

الله أكبر... الله أكبر

مسَّ صوته أوتار القلوب فعبث بها، وساد السفينة سكون لذيذ،

الأذان ينساب كنغم أبدي، إريك، والسيد رُبرت، والإيطالي ألساندرو، وماثيو، وجيف السنغافوري... كانوا يصيخون السمع، مسحورين بعذوبة الصوت... الذي يهز أوتار قلوبهم... للأذان جماليته وروحانيته في هذه العزلة الكونية... لم يسبق أن تأملتم مفردات الأذان بهذا الوعي... الله أكبر... الله أكبر هذه العبارة التي تُردد في بداية الآذان ونهايته... تدركون بالفطرة أن الله أكبر من كل شيء... الله أكبر من كل المعيقات التي قد تعترض طريقكم وتبدو مخيفة، الله أكبر من جل هواجسكم ومن غضب الطبيعة.

أتمَّ أحمد الأذان، وقامت الصلاة.. يؤمكم يحيى الفراجي، كنتم تقصرون وتجمعون بين صلاتي المغرب والعشاء، وصلاتي الظهر والعصر، هذا الالتزام وهذا الانتظام في صلاة الجماعة كان مثار دهشة الخبراء وإعجابهم.

شعرتَ أن روحك أكثر رحابة من السماء، وثمة نشيد يملأ الدنيا طولا وعرضًا لا تسمعه إلا أنت.

أمامكم جميعًا مهمة رسم صورة للملاحة البحرية في القرن التاسع الميلادي، وانتشال الذاكرة البحرية العمانية من طيات النسيان، حان الوقت لتزيحوا النقاب عن تلك الحضارة التليدة، والملاحة الواسعة التي أقامها الأسلاف في المحيط الهندي وشرقي أفريقيا، أجدادنا كانوا روادًا في كل شيء.. مجرد استشعار هذا الأمر كان يثير حماسة منقطعة النظير في داخلكم.

(3)

القمر والليل والبحر غوايات الحالم العاشق التي لا يستطيع الصمود أمامها طويلا... جميعها تتحالف معك ضدي... ضوء القمر يجعلك تهيم في خيالات وأفكار لا حدود لها... ودجى الليل ينشط كل حواسك: السمع، والشم، واللمس تصبح قوية لديك جدًا... ما تزال الصورة الرومانسية للقمر ملتصقة بذهنك... تجد في هذه الفضاءات الحالمة غذاءً روحيًّا يفوق كل الأغذية الأرضية... تحلق في الأعالي، تطير إلى السماء السابعة وراء الحلم المضرج بالرغبة والمتلبس بالأنا... هذه الأكوان تشعرك أنها نواة لعالم أفضل وحياة أكثر طمأنينة وسلامة...

هكذا أنت في مثل هذه الأجواء تبقى بلا حركة فترة طويلة، لا تستطيع أن تحددها، لكنها تكون خارجة عن مسطرة الزمن، أثرها يبقى في داخلك لا ينتهي بانتهائها أو فنائها، ما تزال تستشعر عذوبتها وجمالها... أشياء كثيرة تسبح في داخلك وتسترخي وأخرى تستيقظ..

هذا الفضاء الكوني الشاسع الموشوم بالجمال له لغته ومفرداته

الخاصة تراه أشبه ما يكون بعيني معبودتك... شعور لذيذ ومؤذٍ يفضح حكاية حب غامض تسري في روحك... حينما تغيب في قاع العمق... تصاب روحك بالتيه وتكتسي شيئًا من ضبابية اللحظة وغموضها... لهف نفسي بأي زاوية في القلب أكون؟! وبأي منعطف روحي تُراني مستقرة...؟ مشتت أنت بين ذاتك الغائبة ورغباتك المنفوشة كطاووس...!!!

الواجب والمفروض وما ينبغي أن يكون محددات تضيق بها ذرعًا، وتجدها تطال حريتك وتحرمك حقك في أن تهوى وتحب... إنك على استعداد بأن تتجاوز كل الخطوط الحمراء... وتضرب بعرض الحائط كل قيم الحياة التي جمعتنا... ورويدًا رويدًا أراها تنفلت من بين أصابعك وتتبخر في الهواء كأنني شيء لم يكن... !! كانت صدمة مزلزلة، ولن أغمض عيني وابتلع غصتي وحدي... إنها المعادلة الصعبة... مثلما أنا مخلصة ووفية في حضورك وغيابك ينبغي أن تكون... لا أدري ما الذي جرفك نحوها بذلك الجنون...؟!!

أتكون عقدة الأربعين... والرغبة في إثبات الذات..؟!

كلما حاولت الاقتراب منك واستعادتك وجدتك غير قابل لذلك... أبتكرُ حواراتٍ وحكاياتٍ مختلفة... نظراتُ الاشمئزاز والقرف التي ترسلها واحدة تلو الأخرى.. تترك ظلالها المريبة في رأسي... أتشبثُ بالصمت وفي داخلي ضجيج وصراخ أبكم... سئمتُ المراوغة... أريدُ أن أفرغ حكايات باتت تؤرقني وترهقني... سنوات وسنوات وأنا أحلم بعيد زواجنا الخامس عشر هذا التوقيت الذي كنت تُعلِّمه بدوائر حمراء على رزنامة التقويم، رقم خمسة عشر مرتبط في حياتك بأمور

كثيرة... تراه فأل خير ورقم الحظ بالنسبة لك... ولكنني اكتشفت أنه رقم خساراتي، وعدتني أن يكون يوم زواجنا هذا مختلفًا واستثنائيًّا، سيشاركنا فيه كل أحبتنا الذين شاركونا فرحتنا الأولى... كمراهقة كنت أحسب الأشهر وأعد الأيام... أدخر المفاجآت وأحضر الجمل والعبارات... ما تخيلت أن أتلقى منك في هذا التاريخ رصاصة نافذة في القلب... لم أتوقع في هذا التوقيت بالذات أن أفجع بحقيقة علاقتك بأخرى، وأن نتراشق التهم في الساعة التي يفترض أن نتبادل فيها التهاني... التاريخ مكانه في الروزنامة، والشموع والورود حاضرة، ولكن ثمة غائب من قلب الحدث... هناك خبر ما كان يخطر على بالي... ثمة حقيقة أكتوي بلظى جمرها اللحظة، أنك لم تعد لي... فررتَ في غفلة مني... وفي الوقت الذي حسبت فيه أن مكانتي عندك قد تجاوزتْ سقف المدى...

كيف حدث هذا؟ ومتى؟ ولماذا؟!

امرأة مجهولة أحرقتْ في داخلي ما تبقى من الفرح، كنتُ أتأملكَ وأنت تنجرفُ بقوة في شلالات الحب والهيام.. ليالي الحزن طويلة وأنا مثقلة بأوجاعي المؤثثة بالدموع، والقهر، والحزن، والاغتراب... وجدتُ نفسي في قلب المعركة، معركة الدفاع عن كرامتي، لم أكن أتوقع أن يتطور الأمر إلى هذه الدرجة.

فمن ألوان ظلم الرجل، وقسوته، وجبروته أنه حينما يصبح محط الأضواء، وموضع الاهتمام أول ما يفكر فيه حبيبة طليقة تقاسمه الوجاهة والشهرة، وليس زوجة مكبلة بأثقال الأمومة، أيحق لك باسم الأنانية أن تصادر فرحتي وتغتال بهجتي..؟! وتحيل لحظاتي إلى براكين ثائرة من

الغيرة، والألم، والهم؟!

ما يزال السؤال نفسه عالقًا بروحي المشروخة، لا جواب له، يراودني بين الفينة والأخرى ويلح عليَّ، لقد أصبح هاجسًا بل حقيقة سلمتُ بها... هل أغريك بالعودة من جديد ولديك عشيقة تحتل مساحات قلبك؟!

ولكن لن أستسلم لرغباتك ولن أذعن وأنت تركنني جانبًا... هل أحدثك عن لحظة اكتشافي الأمر؟.. كعادتك خرجت من المواجهة بذكاء تجر خلفك الكثير من علامات الاستفهام والتعجب... يومها لم تقنعني حججك وأعذارك الملفقة... ما توقعتك أن تكون نرجسيًّا حد الهوس... وأنك كنت تُحصي عليَّ سقطاتي الصغيرة وهفواتي البسيطة كل هذه السنين... نقاط ضعفي كثيرة أولها أنت... لا تتتبع إهمالي غير المتعمد لك ولنفسي، فذلك ناتج عن انغماسي في تربية أطفالك وانشغالي بهمومهم التي لا تدري عنها!.

شهور وشهور تمر وصورتك مغتربة بروحي، كأني سفينة غارقة في بحر الغياب... وأنت كالهارب من ذاكرة إلى أخرى... ثمة ذاكرة مثقلة بالمرارة أصبحت ماضيًّا بل ذكرى تبعث اليأس في داخلك.

أنا وأنت اليوم ندان على محراب الهوى، كلانا موجوع ومثقل بالجراح، لكن شتان ما بين الوجعين... يااااااه كم تعذبني هذه الأفكار، ولا طاقة لي بكتمان الصرخات المنبعثة من أوردتي... أليس هذا ما تشعر به الزوجة حين تُخان، ويُغدر بها، وتُطعن في الظهر...؟!

ترحال متكرر وأسفار متتالية ضاعفت من شعوري بالقلق وعدم الاستقرار... ما زلتُ أحلم بالحياة المستقرة معك وأن تكون لي الشط والمرفأ... فوضى غريبة تعتريك... لا تعبأ بآهاتي المكتومة... وتريدني أن أتقبلَ الأمر بهدوء، لم تكن لي يومًا أعصاب من جليد لأفعل، كنتُ أغلي في صمت وأنت عني بالبعيد لا تدري.

لم تكنْ لديك خبرة في ترويض النساء، لكن بعفويتك وتلقائيتك استطعت أن تفرض شخصيتك وتتسلل إلى قلبها وتستولي على تفكيرها، لم تكن وسيمًا، أخذت عن والدك سمرته، وعينيه اللوزيتين الصغيرتين اللتين تنمان عن حدة النظر وشدة الذكاء، هادئ الطباع وحلو الحديث تقنع المستمع دون أن يكلفك مشقة المجادلة، وربما وجدتْ فيك صفات الأب الذي تفتقده.

كان لقاء عابرًا جمعك بها مع أختك أمينة، لكن كلا منكما لم يستطع أن ينزع الآخر من تفكيره، فتاة شديدة الغموض وشديدة الذكاء في الوقت نفسه، أكسبتها المعاناة عمرًا فوق عمرها، نشأت يتيمة الأبوين، وتعيش مع أخيها الأكبر، الإعجاب المتبادل بينكما تحوَّل في طرفة عين إلى حب وهيام، لقد حركت في داخلك خوالج جديدة ما عرفتها من قبل، أما لمعة الحزن في عينيها فلقد كانت أشبه بمغناطيس يشدك إليها.. هي منحتك الحب الذي تفتش عنه، وأنت أعطيتها الإحساس بالأمان الذي تفتقده.

كنتَ تُصبحُ وتُمسي تُقلِب دواوين الحب باحثًا عن بيت أو مقطع شعري يعبر عن اختلاجاتك، وهي تستهويها أحاديث الحب وقصائد

الشجن، وأنا أكتوي بحرقة الآاااه... ما كنت أعلم أنك تتقن دروب العشق وفن الغزل...!.

منذ اللقاءات الأولى بينكما سردت لك تفاصيل حياتها، يُتمها وفجيعتها بوالديها، كنت تخفف عنها، وتهمس في أُذنها:

امرأة بلا جراح لا تستحق أن تكون حبيبة..!

إنك لا تعرف الحلول الوسط، عاشق مسرف في الحب، ومتطرف في مواصفاته، مفرط في كل شيء حتى في غيابك وهجرك وقسوتك، سرعان ما طلبت منها الزواج، لم تكنْ تتوقع أن تتلقى منك عرضًا كهذا في يوم من الأيام، برغم أنها أحست بمشاعرك نحوها منذ أن وقعت عيناك عليها أول مرة، حاسة الأنثى لا تخطيء أبدًا، كانت في صراع بين الرفض والقبول، ولكن كل عيوبك استحالت في نظرها مزايا، وظلت تهاتفك دون علم أمينة، مرَّ عام على تلك النزوة التي ولدت في العتمة، عام ولم يكشف سركما أحد، كانت تلحُّ عليك لتتقدم إلى أهلها طالبًا يدها، وعدتها أن تفعل ذلك بعد عودتك من مهمة الجوهرة، إنك لا تضمن عودتك سالمًا، ولا تريدها أن ترتبط بك وأمامك مصير تجهله؛ لذا طلبت منها أن تمهلك خمسة أشهر أو ستة أشهر لا غير، كنت تشفق عليها من الترمل باكرًا.

ألم تفكر لحظة واحدة في أثر خبر زواجك عليَّ وعلى أبنائي وما قد يتركه في نفوسنا من جروح غائرة...؟!

أتكأ على جرحي، أحاول أن ألملم ذاكرتي المتعبة، لا أنسى لحظة

اكتشافي الأمر، لم أملك القوة الكافية لمواجهتك، ثمة هزائم لا نملك أمامها سوى الاستسلام والاحتراق ببطء، لفت انتباهي كلما رنَّ هاتفك، تلتقطه بلهفة وتتوارى عنا، تغيب ساعات، الأنثى تشم خيانة زوجها من بعد أميال، عصبتُ لساني، وأضربتُ عن الكلام، تركتك تتمادى وإحساس بالقهر ينخر في عظامي، تلفحتُ بالصمت، وخبأتُ وراءه كل هزائمي وانكساراتي.

وهل كنتَ تتصوَّر أن أفعل غير ذلك؟!

اقسِ عليَّ ما شئت، فلن تجدني هشة، لن أتنازل عن حقوقي، ولن أجعل أحدًا ينغص عليَّ حياتي.. أصرُّ أن أنام على ذراعك اليسرى لأكون قريبة من دقات قلبك، أقتربُ منك كمن يداوي جرحًا غائرًا، في كل مرة أختلِقُ عناقًا لا يُشبِه الآخر، وفي أعماقي الكثير من الشجن والوجع..! نبهتك أكثر من مرة وأنت تداعب خصلات شعري وتسافر بعينيك.. أنني سعاد، كنت أخشى أن تناديني باسمها، أقتربُ منك أكثر لأهمس قريبًا من أذنك: أنا سعاد، وفي الوقت نفسه أصيخ إلى دقات قلبك المتسارعة، وفي داخلي عشرات من الأحاسيس المتضاربة والمتشاحنة، تتنهدُ تنهيدة طويلة تقطّع أحشائي، ثم ترد:

ـ أعلم أنك سعاد..!!

لاأريدك أن تفكر في حضني بامرأة أخرى

تتابع غرس أصابعك في خصلات شعري، كنت أتمنى أن تبدد أناملك أحزاني المبعثرة التي يمتلأ بها رأسي، أريد أن أظل غافية على

صدرك ولا أصحو أبدًا، الغصة تخنقني ودموع صامتة تتساقط من عينيَّ، احتضنتني بقوة، وقبلتني على جبيني، لم تقل شيئًا، لكنها كانت دافئة ولذيذة تلك القبلة.

شعرتُ أن روحي تتطاول وتتطاول وأن دماء جديدة تسري في عروقي، ولكن سرعان ما انقلبت إلى الجهة الأخرى، ودخل كل منا في اتجاهين متعاكسين، استغرقتَ في نومة عميقة... تنام على خمائل من الأحلام الوردية، ووسادتي فارغة إلا من دموعي، تعذبني أفكاري وهواجسي... شعرتُ بالاختناق فغادرتُ الغرفة.

أية عدوانية فظة استيقظت في مشاعري تجاه منال، أحببناها جميعًا حتى أصبحت فردًا من العائلة، الأقدار غريبة جدًا، ما توقعت لحظة واحدة أن تطعنني في الظهر وتسلبني زوجي.. كنت أبالغ في إكرامها بحضور أمينة أو في غيابها، ليل نهار أحدثُ نفسي:

ـ عجبًا لكل أنثى تربط حياتها ومستقبلها برجل خان ثقة زوجته، فما الذي يؤكد لها بأنه لن يخون ثقتها في المستقبل ويأتيها بالثالثة، وكثيرًا ما تكون هذه العلاقة استراحة المحارب، يريد أن يثبت الرجل فيها أنه ما يزال مرغوبًا فيه، ويختبر جاذبيته بأنها لم تنطفئ جذوتها بعد...؟!

لطالما رددتِ أمامنا:

ـ ليس من حق أي فتاة مجرد التفكير في رجل متزوج ..!

أليست هذه أفكارك يا منال ومبادئك التي طالما تشدقتِ بها أمامي وعلى مرأى ومسمع من أمينة؟! كيف سمحت لنفسك مواعدته ومقابلته

وضربت بكل الأعراف عرض الحائط..؟! أهانت عليك أسرتك أيتها المدعية الصلاح والتدين؟!

لم أكن أفهم في الآونة الأخيرة، لماذا كلما رأيت منال أشعر بالانقباض...؟ حتى بدأتَ تتسلل من حياتي شيئًا فشيئًا لدرجة يصعب عليَّ اللحاق بك، لولا كرامتي وكبريائي والخوف من العاقبة لغمدتُ خنجرًا في صدرها.

لم تترك لي مجالا للخيار أردتَ أن تضعني أمام الأمر الواقع... صارحتني برغبتك في الزواج بأخرى؛ متذرعًا أن الشرع أباح لك الزواج بأربع، تعجبتُ من جرأتك ومن سرعة تغيّر مبادئك، كنت دائمًا ضد الفكرة، وتعيب على من يتزوج الثانية، وتأسى لحاله، وتتساءل دومًا:

ـ أيمكن للقلب أن يتعلق باثنتين...؟!

لم أتخيل نفسي أبدًا زوجة ثانية، برغم أن الشرع أباح التعدد لكنني كأية امرأة لاتقبل أن يشاركها أحد في زوجها، ومن تقبل وضعًا كهذا تخدع نفسها، أو مغلوبة على أمرها لا غير... وربما تكون قد كرهت زوجها وما عاد يعني لها شيئًا.

أعترف أن أبنائي كانوا ضحية تقلباتي المزاجية، وثورتي وعصبيتي، لقد وجدتُ نفسي مدفوعة إلى حرب ضروس.. ما حدث كان كفيلا بهدم كل شيء، ملامح الناس أصبحت حادة وقاسية في نظري، ومتنمرة كنت في نظرك، سمعتك مرة تشتكي حالك لأخيك داود، وتكرر له:

ـ لقد سئمتُ حياتي المحنطة..!!

آلمتني العبارة واستفزتني جدًا، تلبستني حالة من الضيق والاكتئاب، أسائلُ نفسي عمّا يكمن وراء اتهامك الذي نخر في رأسي ثقوبًا عميقة:

ـ يااااااه، حياتك المحنطة ـ يا صالح ماذا أقول وأيامي باتت متشابهة؟ ما بين رعاية الأطفال ومتطلبات العمل والبيت، أفنيتُ عمري أعطي وأهب بلا مقابل.

وسط هذه الحالة المرتبكة شعرتُ أنه ما عاد لك في نفسي ذرة حب لكنها الكبرياء والرغبة في الثأر لكرامتي المهدورة، وحلَّ بيننا صمت بغيض، لاحظه من حولنا، وبدأ يتساءل عن أسبابه أولادي، لقد أهملتني طويلا، فلا تستغرب إن أهملتك لحظة اكتشافي خيانتك، الهواجس المقلقة تضني فؤادي.

آاااااه يا صالح، إذا كان للحزن لون فأنا لونه... أنا عنقود من الأحزان، أنفقتُ عمري في حالة انتظار... أُفتش عن دروب الفرح وما تجرعت سوى مرارة النوى.

لطالما كررت والدتي على مسامعنا في مواقف شتى: "شجرة الحرمان لا تورق سوى البؤس ولا تثمر إلا الحزن"، أنا يا أماه ثمرة الحرمان في دنيا الفقد.

(4)

البحرُ يتهيأ لوداع الشمس في سكون مهيب، تبدو السفينة أكثر عزلة حينما ادلهم الظلام، السماء مزخرفة بنجوم كثيرة، لا تستطيعون السير في البحر دون الاهتداء بالنجوم، ثمة تشابه كبير بين الملاحة البحرية والسفر في البيداء كلاهما معتمد اعتمادًا كبيرًا على الاسترشاد بالنجوم، ولا عجب أن يسمى الجمل بسفينة الصحراء، كل شيء له تفسير ومعنى في عرض البحر: حركة الريح، والموج، والهواء، والنجم، والغيم، والسحب.

وعليك أيها القبطان الالتزام بكل تفاصيل الملاحة البحرية السائدة في القرن التاسع الميلادي، وأهمها استخدام جهاز الكمال لتحديد مسار السفينة، هذا الجهاز لم يعد يستخدم حاليًا حل مكانه الإسطرلاب، وهو عبارة عن قطعة خشبية صغيرة مربوطة إلى خيط يمكنكم من قياس خط العرض بواسطة الاسترشاد بالنجوم.

العرب وصلوا إلى ما وصلوا إليه ليس من قبيل المصادفة، إنما بالحسابات الدقيقة والخبرات الطويلة المتراكمة.

لقد كان كتاب سليمان المهري(العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) الذي يبحث في أصول الملاحة الفلكية وقياس النجوم، وأحوال الرياح الموسمية... دليلك في تعرف كنه الملاحة التقليدية وأسرار الرياح الموسمية، كما كان كتاب ابن ماجد مثار نقاش بينك وبين الخبير إريك، أراجيز يحتاج فهمها إلى كثير من الصبر والتأني والتمعن... لقد تمكنتما بواسطة الكمال من رصد العديد من النجوم النادرة التي يتقدمهما نجما الشمالي وسهيل، يبدو كل منهما بارزًا وواضحًا جدًا، هذا البزوغ والتجلي له تفسيره لدى المهري وابن ماجد.. كل يوم تتعلم الجديد في علم الفلك الذي بدأت تتعمق في دلالاته.

الوقت يمضي ببطء شديد في هذه الغربة النفسية الطويلة، ليس أمامكم سوى ممارسة بعض الألعاب الترفيهية والمسابقات بين البحارة، اكتشفتَ مواهب العديد من البحارة و مهاراتهم ، سعيد الطارشي يتصدر المركز الأول في مسابقة أسرع عقدة حبل وأقواها، بينما ساجد يقضي ساعات فراغه في لعبة الدومينو، إنه لاعبٌ من الدرجة الأولى برغم أنه ساكن لا يتكلم إلا إذا انتزعتَ منه الكلمات انتزاعًا.

أما رُبرت وإريك ولوكا يقضي كل واحد منهم الوقت في قراءة مجلة بحوث أعماق المحيطات، لقد جلبتم أعدادًا كبيرة من هذه المجلة التي تصدر في لندن وباريس ونيويورك، معلومات الغرب حول الملاحة في المحيط الهندي مستقاة من المصادر البرتغالية التي كتبها العرب، وأغلب المخطوطات العربية نشرها المستشرقون في الغرب.

(5)

سجا الليل وهجع الكون، وأنت مُطرِقٌ تُفكر.. قطرات من الأمنيات العذبة تراودك كل حين.. وتسافر بك أعلى وأبعد من كل الامتدادات... تنظر إلى الفضاءات الواسعة منتشيًّا، حاستك السادسة لها إيقاعها المتفرد، وأيقونتها الخاصة... إنها تومض بالكثير، تسير على وقع الحلم، تجوب سطح السفينة، مخاطبًا البحر الواسع الممتد:

ـ آاااه أيها البحر أي سحر تبثه في الخلائق، فيحلو الألم، ويهون البُعد.. ولك الله أيُّها الليل ما تنفك تلقي عليَّ بظلالك الجامحة، فيطير النوم من عينيَّ..!

بعد عشرة أيام من الإبحار، ثمة مشكلة بدأت تتجلى لكم وهي صعوبة توجيه دفة السفينة، وهذا الأمر يشكل خطورة بالغة، حيث إن حبال السفينة موصولة ببعضها بعض، وقد تؤدي عملية الاحتكاك بأي جسم صلب إلى تمزق الحبال.

وبعد عمليات معاينة واستكشافات مختلفة، لاحظتم أن الحبل الطويل الذي يحكم قارب النجاة قد تقلص في الدفة الوسطى،فالجوهرة تحمل ثلاثة قوارب نجاة يتسع كل واحد منها لثمانية أشخاص، بالإضافة إلى قارب مطاطي صغير للاستخدام إذا دعت الحاجة، حاولتم فك الحبل العالق ولكن محاولاتكم باءت بالفشل، لم تتمكنوا من الوصول إلى الحبل في أسفل السفينة، تريثتم حتى بزوغ الفجر وطلوع شمس الغد.

في الساعة السابعة صباحًا، تبرع أحمد البلوشي لنزول البحر، خلع ملابسه ورمى نفسه في البحر، يرافقه في هذه المهمة حسين الرئيسي، وذلك لفك الحبل العالق في دفة السفينة، واجها صعوبة في الوصول إلى موقع الحبل، وهنا تجلت مهارات أحمد برغم أن رأسه اصطدم بمؤخرة السفينة، إلا أنه قام بالغوص، ومضى يضرب بساقيه في هلام الماء العميق، لقد تبين له أن الحبل بالفعل عالق، ويصعب فكه، وبعد ثلاث محاولات تمكن أحمد من فك الحبل، والصعود بسرعة من القاع إلى السطح، مما سبب له التواء شديدًا في يده، وهذا يحدث كثيرًا للغواص حينما يتنفس تحت الماء، يذوب الأكسجين في دمه، مما يؤدي إلى حدوث فقاقيع هوائية تضغط على مفاصله، وتسبب له المزيد من الألم، ولكن مع المداومة على تناول المسكنات خفتت حدة الألم.

البحارة يخضعون هذه الفترة للتدريب حول آلية استخدام صندوق الطوارئ، وهو الصندوق الأسود للسفينة الذي يكون عادة بقمرة القبطان

وفي عهدتك، الصندوق بلاستيكي، صغير الحجم، عازل للماء، ومحكم الإغلاق، برتقالي اللون، مغلف من الداخل بأسفنج حافظ، يوجد فيه جهاز (جي بي أس) الذي يرسل ذبذبات للأقمار الصناعية، لا تلجأوا إلى استخدامه إلا في حالة الخطر، وحين استنفاذكم كل سبل النجاة، ورغبتكم في طلب المساعدة البحرية الطارئة، وجذب انتباه السفن عن بعد، كما يحتوي الصندوق على وسيلة مساعدة أخرى وهي: المفرقعات، كل عبوة منها عبارة عن قنينة غاز لها لهب شديد الوهج أشبه بالألعاب النارية تسير بسرعة عالية تصل إلى مسافة عشرين إلى خمسين كيلو مترًا، كما وضعت في داخل الصندوق متعلقات البحارة ذات الأهمية، مثل: جوازات السفر، وشهادات تراخيص السفينة وملكيتها.

في الصباح أخبركم يحيى الفراجي ومن كان معه في المناوبة أنه في تمام الساعة الرابعة فجرًا، ظهر قرب السفينة حوت ضخم البنية يميل لونه إلى الرمادي، ويزيد طوله عن عشرين مترًا، له صوتٌ عميقٌ ومدوٍ، كان الموقف مخيفًا، ومذهلا بالنسبة للمصوِّر ماثيو الذي ظل يلاحق هذا الحيوان الضخم بعدسته من مكان إلى آخر، يقول ماثيو وهو يستعيد الحدث:

ـ لقد بلغ ضخ هرمون الأدرينالين في جسمي ذروته عندما قفز الحوت أمام السفينة وتوقعتُ أن يسقط وسط الجوهرة، ولكنه انحرف برشاقة مدهشة وغطس في المحيط دقائق، ثم خرج من الجهة الأخرى للسفينة.

(6)

ليل ونهار يتلاحقان وكأنهما في حلبة سباق، ثلاثة أسابيع انقضت وأنتم في عرض البحر، أمطار تخاتلكم بين فينة وأخرى، ورياح بين خفيفة ومتوسطة تُسيِّر الجوهرة، اليوم شديد الحرارة، فالشمس تصوِّب سهامها الحامية تلفح الوجوه، واضطررتم إلى وضع قبعات على رؤوسكم، الحر الشديد أضنى أجسادكم، فهب بعضكم إلى حيث يوجد الظل، تحت ظلال الأشرعة.

في التاسعة صباحًا قمتَ برفع الشراع الخلفي، كما استلمت اتصالا من إحدى السفن الهندية التي كانت تقترب من جوهرة مسقط، إنكم تستخدمون المناظير المقربة في استكشاف السفن العابرة، نَزَلَ من السفينة الهندية ثلاثة بحارة، رحبوا بكم وتبادلوا معكم الهدايا التذكارية، وبعد نصف ساعة غادرتكم السفينة، سرعة الهواء تتراوح ما بين خمس إلى ثماني عقد بحرية، بينما سرعة الجوهرة لا تتجاوز عقدتين ونصف، طائرة من خفر السواحل الهندية تقترب منكم، قمت بتحيتها بواسطة

الجهاز اللاسلكي.

الأمور تجري على خير ما يرام، ولكن تيارًا قويًّا لم يكن فى الحسبان أخذ يجرف الجوهرة نحو الجنوب، فانحرفت عن مسارها الطبيعي، الرياح تشتد والأمطار لا تتوقف، استمرت العاصفة ساعات نتج عنها حدوث صدع في الصاري وكسر بسيط في العارضة، كما حدث التواء في يد سعيد الطارشي الذي كان يقف أعلى الصارية يجاهد الريح.

مرت ساعات طوال ثقال حتى هدأت الريح، وعادت الجوهرة إلى مسارها الصحيح، تدفعها برفق ريح خفيفة، على إثرها تترنح سفينتكم ببطء... ترنحات أشبه ما تكون بالهدهدة لمن يغالبه النعاس، وضربات الموج كانت أشبه بترنيمة روحية.

أخبرت البحارة بجدول الاحتفالات الذي ينتظركم في الهند، إنهم يعدون الساعات التي تفصلهم عن كوتشين، كان بينك وبين البحارة توافق عجيب في الطباع هذَّبها البحر.

منذ أن غادرت ووالدتك تعيش حالة حزن شديدة، عاصبة جبينها بمنديل تشكو من صداع يكاد يفتك برأسها، بتنا نخشى عليها من الجنون، لقد كان البحر مصدر قلقها، وذاكرتها تختزن الكثير من الأسماء ضحايا البحر، يمتزج في داخلها الخوف من سطوة البحر بالشعور بالوحشة والفقد... أما والدك فقد أصبح منزويًا على نفسه، لا يفتر عن ذكركَ، يجد في الدعاء والذِّكر راحة وسكينة.

الجسر الرابع

كوتشين والحب الضائع

(1)

كوتشين المرفأ الأول لسفن العرب التجارية القادمة من شبه الجزيرة العربية إلى المحيط الهندي، والذي كان منطلقًا لتجارة التوابل منذ القدم، ويعد اللبان من أشهر صادرات عمان للشرق وأثمنها منذ عصور ما قبل التاريخ... فهو جزء أساسي في طقوس الديانات الهندية... يفوح عبقه الفواح، يعطر المعابد والكنائس المختلفة.

بين جنبات هذا المرفأ تختلط مغامرات البحارة بأساطير البحر، وحكايات الجزر البعيدة، والسفن التي تنتقل من مجهول إلى مجهول متعرضة للمهالك والمخاطر... تجتمع في هذا المكان الأخبار والأفكار والاحتمالات، هنا ذاكرة البحارة العرب، وبصمات الملاحة العمانية وآثارها عبر العصور.

ولقد أورد العالم الجغرافي الإدريسي قائمة بأسماء عدد كبير من التجار العمانيين الذين أسسوا مجتمعات تجارية على السواحل الهندية، وساهموا في انتشار الدين الإسلامي بسماحتهم وأخلاقهم العالية، وما يزال الكثيرون منهم يحتفظون بأسمائهم العربية وأنسابهم برغم أنهم فقدوا لغتهم العربية، فقد تزوج العديد منهم من نساء هذه المنطقة اللواتي

اعتنقن الإسلام، وأصبح الأطفال الذين نشأوا في ظل هاتين الثقافتين نتاج حضارتين متلاقحتين، ونواة لإقامة محطات تجارية على السواحل الهندية.

تقترب الجوهرة من المرفأ، تتهلل شواطئ كوتشين، ترتسم الفرحة على الوجوه، وتتخثر الدموع في العيون.. دموع مختلطة بابتسام، حشود غفيرة من الحكومتين العمانية والهندية اجتمعت واصطفت في انتظام، السيد بدر وتوم يلوحان بإيديهما والابتسامة تملأ ثغريهما، الجوهرة ترسو في أول مرفأ لها، كان مشهد الاستقبال مهيبًا، يليق بالجوهرة وبكم.

أكاليل من الورود والياسمين وضعت على عنق كل واحد منكم وفقًا لتقاليد الاستقبال الهندية، طلاب من الكليات والمدارس الهندية بأعمار مختلفة يلوحون بالعلمين الهندي والعماني، لقد تابعوا في دهشة خط سير السفينة بواسطة الأقمار الصناعية، وكانوا مكلفين بأنشطة مختلفة للتعبير عن تفاعلهم مع الجوهرة كرسم وجوه البحارة، ومسار السفينة، فأصبحوا يعرفون أسماءكم، ويميزون أشكالكم قبل وصولكم، الفرحة تملأ وجوه الطلاب وهم يرون الجوهرة حقيقة ماثلة أمامهم، إنهم يذرعون الجوهرة طولا وعرضًا يكتشفون تفاصيلها.

تنبه الطلاب الذين كانوا يتدافعون:

ـ على مهلكم.

صخب الطلاب يعلو وأنتم تسكبون في آذانهم المعلومات حول كيفية صناعة الجوهرة، الحماس يدفعكم للدخول في عمق التفاصيل.. ألسنتكم طلقة بالإنجليزية، برغم أن بعضكم لا يعرف رسم حروفها،

أتقنوها بالاحتكاك والممارسة لا عن دراسة.

كنتَ تشعرُ بزهو شديد وأنت تتحدث عن السفينة، شهر بأكمله وأنتم في عرض المحيط تصارعون الموج بسفينة شراعية صمدت وكذَّبت جُلّ التكهنات التي رددت بأن الجوهرة لن تصل، ولن تحقق أي نجاح يُذكر.

احتفائية رائعة بالحدث وجدول مشحون بالفعاليات المختلفة، طلبة المدارس قدموا عرضًا مسرحيًّا يجسد رحلة جوهرة مسقط، بعدها وجدتم أنفسكم في مؤتمر صحفي مطول يليق بالحدث... اعتلى البحارة المنصة كنت في المقدمة كعادتك... كاميرات بأحجام مختلفة مصوبة تجاهك أنت بالذات قبطان السفينة، وميكرفونات متعددة تعلن عن جهاتها، وبلحظك اختلستَ نظرة سريعة إلى آدم الذي لمحك فمسح على لحيته بتهكم، لقد كانت لحاكم طويلة كأنكم مبعوثون من القرون الغابرة... لكنها منحتكم شيئًا من الوقار.

ورنَّ في أذنك أول سؤال وجه إليك من قبل وكالة الأنباء الهندية:

ـ قبطان صالح بماذا خرجتم من محطتكم الأولى؟

أجبت في حماس:

ـ لقد استطاع هذا الفريق أن يثبت أن إنسان اليوم قادر أن يتحمل ما تحمله أسلافه السابقون بنفس راضية ومضحية وصابرة، وبسفينة شراعية تعود إلى عصور بدائية سحيقة في تاريخ صناعة السفن العربية... ليس هناك شيء اسمه عقبات أو مخاطر لا يمكن التغلب عليها، لديَّ طاقم أستطيع أن أخوض به أهوال البحر ومخاطره، الله معنا، سنكمل المهمة وبإذن القهار ستصل الجوهرة إلى سنغافورة بسلام.

الأسئلة تتوالى وتتتابع حول الأحوال الجوية، والمصاعب التي واجهتكم، وطريقة معيشتكم في السفينة.. وتناهى إلى سمعكم إشاعات تداولتها الألسن في الهند قبل وصولكم؛ أن الجوهرة رجعت ولم تستطع أن تكمل رحلتها، هذا الخبر أكده أشخاص قدموا من سلطنة عمان، وقالوا إنهم رأوا السفينة ترسو في ميناء السلطان قابوس... وثمة تكهنات أخرى بأن السفينة لن تستطيع أن تُكملَ سيرها، وأن إمكانيات الوصول إلى سنغافورة شبه مستحيلة.

في المرافئ تتداخل الحقائق الكبيرة بالأكاذيب الصغيرة، هذه الأخبار ضاعفت من إحساسكم بعظم المسؤولية والهدف الذي تسعون إليه، كنت تجد أن المؤتمر قد طال أكثر مما ينبغي وأنتم مرهقون، وكالات الأنباء الهندية وقنوات فضائية وإذاعية، قامت ببث مباشر للحظة وصول الجوهرة إلى المرفأ ومراسم الاستقبال البهيج... وما إن انتهى المؤتمر حتى علمتم أن السفارة العمانية أقامت حفل عشاء احتفاء بالحدث، حضره كبار رجال الأعمال والدبلوماسيين في الهند.

لقد طالت السهرة، والبحارة متلهفون لمحادثة الأهل والاطمئنان عليهم وطمأنتهم في الوقت نفسه، كان سعيد الطارشي أكثر البحارة لهفة ينتظر مولودًا، وأنت تجتهد في إخفاء علامات الوجد، تسابقك أشواقك لسماع صوتها، كنت تدخر المكالمة إلى آخر الليل ليحلو الحديث ويطول... هاتفت أمك التي بكت فرحة، بينما حدثتني باقتضاب من هاتف أمك، لم تكلف نفسك الاتصال على هاتفي، سألتني عن حالي وعن صحة حمزة وإخوته، حمزة ذلك الفجر الذي أشرق في سماء حياتي، إنه قطعة من روحي وأحنَّ أبنائي عليَّ، لم يأخذ منك سوى سخائك وحبه للخير

هذه الخصلة تظهر في الكثير من المواقف برغم صغر سنه.

اللهفة التي كانت تفضحها نبرة صوتي يغتالها برودك، في كل مرة تطرح عليَّ سؤالين فقط وتنسحب متعللا بالتعب، أريد أن أسمع شكواك وأنينك وأن تحكي لي المواقف الطريفة والصعبة في الرحلة، لم تعُدْ تحفل بلهفتي، ولم تمنحني الفرصة للتعبير عن أشواقي المبعثرة... ولكنني عذرتك ونثرت على مسامعك دعواتي التي لا آخر لها...

أعلم أن الحديث الذي تدخره له نكهة أخرى... واللهفة التي ترفرف بين جوانحك لها عبق مختلف... كانت أمنياتك التي لم تنطفيء جذوتها لحظة واحدة منذ أن غادرت ميناء السلطان قابوس ولا يمكن أن تغني عنها أية أمنية أخرى...

رأيت في ردهة الفندق أليساندرو يسير مترنحًا وبيده كأسه، اقترب منك .. رفع كأسه، وقال:

ـ في صحة الجوهرة إلى الأبد.

يبدو أنه شرب الليلة ما حرم منه طوال شهر بأكمله، فتسللت بخفة دون أن يشعر بك.. رأيتَ طابورًا طويلًا بانتظار المصعد... كان يقف بينهم إياز يعبث بمعطفه، ويغني بنشاز أغنية هندية قديمة... آثرت ركوب السلالم فغرفتك بالطابق الأول.

(2)

قدماك تكاد تطير عن الأرض، تشعر بخفة عجيبة... وأنت تقفز السلالم، هيأت نفسك للمكالمة المترقبة... حلقت ذقنك وأخذت حمامًا خفيفًا، نفضت غبار المسافة، وتحررت من عوالق البحر... تحررت من كل شيء إلا من أشواقك ولواعج الحب المستعرة داخلك... قلبك يخفق بشدة ويدك ترتجف بقوة أشبه بمعزوفة الحنين.. تريد أن تتخطى جدران الصمت وتثرثر... نار الوجد تكويك... كبست على أرقام هاتفها... طالت رنة الهاتف... الثواني تعبر كالدهور.. وذاكرتك تجتر كل التفاصيل... دهشتك الأولى لم يكن جمالها صارخًا ولا أنوثتها طاغية بل كان وجعها عميقًا..

بادرتها:

ـ مساء الحب يا عمري..

صوتها الذي كنت تراه دافئًا وحميميًّا دومًا، أتاك مُغايرًا هذه المرة، ردت عليك بتثاقل:

ـ صالح ..!!! الحمد لله على سلامتكم.

تهرب منك العبارات التي اجتهدت في تحضيرها.. تهمس وأنت تستشعر روح كل حرف تلفظه:

ـ منال حبيبتي يا أجمل حكاية عشق... أحبك... أحبك... وكم أفتقدك... أفتقدك جدًا... طمئنيني عليك... آاااه يا منال هل أحدثك عن لون الغياب وطعم الـ....

لم تتركك تكمل عبارتك، قاطعتك بحدة:

ـ صالح، هذا الشهر كان مساحة كافية لي للتفكير بهدوء ورويَّة... لا أريد أن أكون سببًا في خراب دارك وتعاسة امرأة أخرى... منذ البداية لم يكن حبك يشعرني بالأمان... كل نبضة من نبضاته تزيدني قلقًا، وتشعرني بعذابات تأنيب الضمير... ولن يرتاح ضميري إذا كان في حبي شقاء لأحد... في اليوم أجلد نفسي ألف مرة على تورطي برجل متزوج... ومن أجل أطفالك سأضحي بسعادتي، سأدوس قلبي وأقتلعك من أوردتي... وستجد في الجوهرة ما يشغلك عن وجع الفراق...

شعرتَ أنها متحفظة ومتوجسة منك جدًا، اللحظات الضاجة بالحياة أصبحت خرساء منطفئة.. روحك تتشظى، تحاول أن تعقب ولكنها قاطعتك بحدة وطلبت منك أن تُصغي إليها، كنت تُنْصِتُ إلى رنين كلماتها حين تلفظها في ذهول...

وهي شرعت تتابع حديثها في اندفاع:

ـ صالح، الحب الذي تتحدث عنه، سيطير من أقرب نافذة.. بسبب الخلافات الدائمة مع زوجتك الأولى لن تتركنا نهنأ بسلام، ويكفيني ما أشعر به الآن من تأنيب الضمير... أنا على يقين أنك لا تحبني بقدر ما

تحب أسرتك، وارتباطك بي ما هو إلا رغبة في التغيير... وتنصلك من الارتباط قبيل الرحيل أكبر دليل؛ ومن يهرب من المحطة الأولى لا يعود أبدًا...!!

وبلهجة المنافح عن ذاته عقبتَ:

ـ لم أتنصل، وعدتك بالزواج وسأفعل.. سعادتي معك وارتباطي بك حلمي المؤجل...

وفي تهكم ردت:

ـ أرفض أن أكون امرأة في الظل.. ولا أقبل أن تقاسمني إياك امرأة أخرى، ستحرقك غيرتي المجنونة وسأضيق الخناق عليك.. وأخشى أن يكون مصيري الإهمال...صالح ـأنت لست ليـ ثمة حواجز كثيرة تحول ما بيننا لا يمكن هدمها أو تجاهلها.

على وقع كلماتها كانت روحك تهوي من سلم الحروف، تشعر أنك تقف على أعتاب القطيعة... وحبيبتك تنأى عنك، حروفها تقصيك شيئًا فشيئًا، احتقن صوتك وأنت تحاول أن تبرهن لها:

ـ إنني أبحث عن الاستقرار العاطفي والنفسي وهذا ما عرفته إلا معك... لقد عشت بالقرب منك روعة الحب وسعادته... كملاك عبرت حياتي؛ فأصبحت نجواي وتضرعاتي التي لا تفتر... منال أنت حبيبتي.. حبيبتي... وأخذتَ تكررها في ظمأ:

ـ نعم، حبيبتي الى الأبد.

قالت وهي تمطُّ الكلمات ساخرة:

- هذا الحب ما هو إلا سراب صورته لنا تكهناتنا البائسة.. ولا طاقة لي بالاستمرار والتخبط في علاقة مصيرها محتوم سلفًا، لا أريد أن أدخل معركة أنا الخاسرة فيها ـ صالح ـ أرجو أن تنساني، ولا تحاول الاتصال بي مرة أخرى !!.

وهمَّتْ بإغلاق الهاتف، شارة الفراق تومض لك من بعيد... وظلال كلماتها تحمل أبعادًا خفية... خواطر وأفكار شرسة تداهمك وترعبك...

وبرجاء وتوسل ناديتها:

ـ منال، أريد لحظة، وربك لحظة... امنحيني فرصة... لا تقضي عليَّ، ولا تتركيني، إنني أحتاجك، أحتاجك جدًا، ولا طاقة لي بفراقك..!! لستُ أدري من الذي صور لك الزواج من متزوج كارثة...؟! أعرف العديد من الزيجات الناجحة، وأنا أعلم معدنك جيدًا، ونقاء قلبك لن تظلميني ولن أظلم أسرتي.. وسأكون عادلا قدر الإمكان، الحياة أقصر مما نتوقع، لِمَ تحكمين على حبنا بالانتهاء وأمامنا حياة أخرى تنتظرنا...؟!

هزت كتفيها بلا مبالاة، وغمغمت:

ـ نعم حياة مليئة بالمنغصات ...!

ـ لم تعجبك ردة فعلها، كل شيء في نظرك أخذ يتداعى وينهار إلا عنادها ومكابرتها...

أجبتها بحدة:

ـ الحب لا يخضع لعقل أو منطق وإلا أصبح واجبًا... وهذا الحب الذي ترينه ثقيلا لا أريدك أن تبقي عليه من باب الواجب.، ما دمت

قد كفرت به.

كانت تتوسل إليك أن تتركها تكمل حديثها، وأنت تشعر أنه لم يعد لديك شيء تقوله.. سادت لحظات صمت خلتها دهرًا، حتى اعتقدت أنها لم تعد على الخط، فناديتها:

ـ منال.

ـ نعم.

صمتت قليلا، ثم قالت والكلمات ترتبك فوق لسانها:

ـ صالح، أنا ارتبطتُ بشخص آخر، اليوم كان عقد قراني على شاب لم يسبق له الزواج...

وهوى الحلم الجميل من صهوة جواده.، ذعر متوحش يتملكك من كلامها، ظننتها تمزح، ولكنها مضت تحاول أن تبرر قرارها... وأنت منشغل بهاجس التفاصيل، تفاصيل غريمك من يكون..؟ وما شكله؟ وما لونه؟ وما قوامه...؟ ونوع عطره؟ وشهادته؟ وماهية الكاريزما التي يتمتع بها والتي استطاع أن ينتزعها منك...؟ مطارق الغيرة تدق رأسك، كنت ستسألها عن كل ذلك لكن في لحظة كبرياء متشحة بالسواد تراجعت.

شعرت بأنك تريد أن تلملم كل بعثرتك وانكساراتك وتهرب منها، ما عادت الفتاة التي تحب ولا هذا صوتها ولا هذه كلماتها... استعرت نيران الغيرة بين ضلوعك، حنق شديد يتملكك من غريمك ذاك الذي لم تعلمك عن أمره شيئًا...

وكالحلم البعيد جاءك صوتها مختنقًا:

ـ صالح، أحبك بجنون ولكن لا حلَّ لنا سوى الفراق... شكرًا لأنك منحتني هذه التجربة الجميلة.. شكرًا على كل لحظة حب أسكرتني عذوبتها... كل الأقدار ضدنا ولن نلتقي، أكره أن أقول هذا لكنها الحقيقة.

ـ ولكنني أحببتك وكأنك قدري..!! والله، أحببتك كما تستحقين..! ولا شيء سوى الحب قادر على تغيير الأقدار.

هذا ما كان يدور في داخلك ولم ينطقه لسانك، أبجديتك تتوارى، لم تجد كلمة تتفوه بها... تشعر أنك تائه بين كلماتها... وأنك لم تعد ضمن بؤرة اهتمامها.. وأن الكلام في مثل هذا الوضع لا جدوى منه.. تشعر أن تصرفات هذه الفتاة لا منطق لها، ولا يمكن فهمها.. شديدة الكبرياء والحزم.. بل تشبه البحر في جبروتها..

أغلقتْ الهاتف؛ تاركة وراءها أكوامًا من الذكريات التي لا تدري ماذا سيكون حالك معها... ؟!

تبددت الحبيبة والعشيقة وكأنها شيءٌ لم يكن، أضحت سرابًا... وأنت كما أنت معلق على حافة الحلم..

ومن هول الصدمة تهالكتَ على كرسيك صامتًا... مشدوهًا كمن تلقى رصاصة غادرة في القلب... جلُّ أحلامك الجامحة تتهاوى وتتساقط.. تتطاول علامات الاستفهام والتعجب في داخلك، وأنت تتساءل:

ـ هذه الفتاة تقتص مني على أمر لا علاقة لي به..! لماذا ارتكبتَ هذه الحماقة..؟ كيف تُعاقب قلبًا هي المستولية عليه؟ ولماذا تنسف غرام العمر في لحظة كبرياء؟!،ليتها تعلم أن كبرياءها هذا قد قضى عليَّ... وألقى روحي في غياهب الوجع... !

منذ أن غادرتَ وأمينة مستميتة في الدفاع عنك أمامها، أمينة شخصية محبوبة الكل يعترف بقوة شخصيتها، وإيثار والدها لها عن بقية أخواتها، وهي لا يحلو لها إلا الجلوس معكم مرتبطة بك جدًا، وأنا بدوري أكبرت هذا التعلق وباركته.

ذات مساء التقيتُ أمينة مصادفة عند خالتي، فأخبرتني كالمشدوهة أن منال قد تزوجت، وسألتني:

ـ أليس في الأمر بعض الغرابة؟!

دهشة الخبر آلجمتني عن أي تعليق... ياله من خبرٍ نفض عن وجهي أطنان البؤس واليأس والانكسار، فامتلأت ملامحي بهجة، فرح صبياني بريء يجتاحني كما لو أنني نجحت في امتحان العمر، تنهدتُ بارتياح، أشعر أن خفقات قلبي بدتْ مسموعة، وأفكاري بدأتْ تنساق وراء خيالات واسعة، كنت سعيدة، ولو استطعت لزغردتُ لأعيد الفرح إلى روحي... ولكن ثمة أسئلة ما انفكت تلح عليَّ: متى دخل هذا الرجل حياتها؟، وكيف يحل رجل مكان آخر بهذه السرعة، ويصبح حاضرًا في تفاصيل يومها..؟ ما توقعتُ أن وهج الحب يخبو بهذه السرعة، وأن ثمة نساء قادرات على التنازل عن حب العمر بهذه السهولة،كنت أردد:

- أجل، انتهى زمن التضحيات المجانية...

وفي المقابل تحسرتُ على حالي وأنوثتي التي أهدرتها على وهم الانتظار.. لطالما كان الانتظار نول أنسج منه أحلامًا حريرية... ضيعت كل التفاصيل في لحظات الانتظار.. ورسم ملامح المجهول المنتظر... كنتُ أنتظره وأخشاه بقدر لهفتي والتصاقي به.

وحينما رأيتُ أبنائي يلتفون حولي جمعتُ ما تناثر من قواي؛ وأهديتهم إخلاصي غير مكترثة بطعنات الغدر.. وتشبثتُ بهم أكثر كي لا أغرق في بحار اليأس...

لقد تجاوزتُ العمرَ الذي استهلكني في أحلام اليقظة، لم تعُد لديَّ مطالب كبرى؛ فلقد تعلمتُ من الحياة ما ينبغي أن أتعلمه لأهنأ بأمومتي.. لا أكره الحب ولا أحبه ولكنني أجتهد في مكافحته، لم يعد في عيني بقية من دموع لأسكبها... كما ازداد إيماني بأن الحب ما هو إلا وهم نلجأ إليه في لحظات اليأس.

ما إن أغلقت منال الهاتف حتى ألقت بوجهها بين كفيها، وانخرطت في نوبة بكاء حادة، تجد حياتها سلسلة متعاقبة من الدراما.. ثمة حزن دفين ينضوي وراء كلماتها... وثمة ذكريات مؤلمة تختبئ وراء تنهداتها ومسحة الحزن التي تغلف نظراتها...

وعندما هدأت هاتفت شقيقتك أمينة، قالت والدمع المهزوم يتراكض في وجنتيها:

ـ جميل أن نحب ولا نظفر بالحبيب، سيظل صالح ذكرى جميلة أبثه أشجاني.. !! الحب الأول يا أمينة لا يعادله حبٌّ آخر يظل له دهشته وسحره الأبدي..!

ومضت تبرر لأمينة تعلقها بك قائلة بإحساس العاشقة الولهى:

ـ الحب يولد هكذا عفوًا من دون تخطيط أو تدبير... مشكلتي أنني أنساق وراء عقلي، ولا أريد أن أرتكب حماقة وأكون السبب في تشتت أسرة بأكملها، أعلم العواقب... ستتحطم الصورة المثالية للأب في عين

أبنائه، ولن تعود البنت معجبة بأبيها، الإقدام والرفض أمران أحلاهما مُرّ بالنسبة لي.. محبتي لصالح لا حدود لها.، لذا تركته لبيته وابتعدتْ.

أما أنتَ فلقد بدأت تغزوكَ مشاعر وعواطف مبهمة لم تتعرفها من ذي قبل... ودخلتَ في نفق حزن لا نهاية له.، تشعرُ بالوحدة... وأن العالمَ كله قد تخلّى عنك... أعصابك في غاية التوتر... تداعياتٌ كثيرة تعتمل في داخلك، وتلحُ عليك، شكواكما متشابهة بل تكاد تكون واحدة، تسائل نفسك في كل مرة:

- كوتشين يا لون السواد ما ظننت أن محطة الانتظار هذه ستكون مرفأ الوداع... ومنال يا أغنية الحب الثملة.. كم طرت خيالا إليك.. وكل موجة عانقتها عرفت حكايتي..! كيف لا يرعبني فراقك.. وأنا جئت إلى هذا المرفأ لألوذ بك..؟! لم أكن أعلم أن ثمة قطيعة بانتظاري... وأن بوصلتي كانت تشير إلى لحظة الشتات في الوقت الذي كنت أبني فيه قصرًا من الأحلام الشاهقة... وأن اللحظة التي كنت أتمرن فيها على عبارات البوح كنت تتمرنين على لحظات الوداع... من ذا الذي دربك على ارتداء جلد الذئب.. ؟! مهما أسرفت في التفسير والتحليل فليس ثمة إلا حقيقة واحدة.. لن أشتكي ولن أتوسل المزيد.. كالصخرة الصماء سأدمن الصمت..!

وشحَّ الأكسجين في الغرفة لا تجد الهواء لتتنفس، تشعر بالاختناق ولا تستطيع أن تلتقط أنفاسك... فصلت الهاتف الثابت... وعلقت بطاقة يرجى عدم الإزعاج على الباب، ولكنك لم تستطع أن تغلق هاتفك المحمول، أمنية تبتهل في داخلك أن تعاود هي الاتصال... وفي الوقت نفسه تقاوم رغبة ملحة تراودك أن تبادر أنت بالاتصال، ولكن كبرياءك تمنعك، تأنف التسول العاطفي... والبحار المغامر لا يرضى بالهزيمة حتى

في الحب... تعودت طوال حياتك أن تقلب الأحلام إلى واقع وحقيقة...!! طوال الليل لم يغمض لك جفن، عيناك مرهقتان من السفر... وأنت ترى أنهما انطفأتا بعد ضياع الحلم، ثمة حزن يسافر بك إلى المدى الأبعد، ولكنَّ صوتًا في داخلك يؤنبك:

ـ الأحزان تقتات على الجسد، والحب مواجهة، لِمَ التعلق بالكبرياء في لحظات جنون...؟ ربما لن تسمعَ صوتها مجددًا وربما لن تلتقيا أبدًا، حتى وهي تقطع حبال علاقتها بك .. عظيمة كانت بنظرك..

كالمحموم تهذي... صورتها المعتقة تتموج في ذاكرتك... لطالما كانت ذكرياتها واحة أمان في صحراء حياتك المجدبة، تصرخ، صرخاتك المكلومة تشق حجب الليل، تنادي باسمها:

ـ منال .. منال ..

وتردد:

ـ شمس حياتي قد غابت... حبيبتي تركتني للماضي وتزوجت ... قلبها من حجر..!.

كنت تُمني نفسك بدوام القرب إلى آخر الأجل.. جربت كل الطرق التي كانت تجلب لك النعاس، ثمة عتمة موحشة تأبى أن تتركك وتحول بينك وبين الهجوع... تفتح عينيك... تُرعبك ضربات قلبك المتسارعة... تتطلع إلى الساعة، تكتشف أنها تشير إلى الرابعة والنصف، ضوء الفجر يتسلل عبر الستائر المنسدلة، كم تحتاج من الوقت لتنتزع نفسك من مخالب الأسى؟ لقد انتهى غرام العمر ومزقت صفحاته..!

(3)

لم يكن نومك قد استغرق سوى ثوانٍ، أيقظتكَ طرقات مجنونة على باب الغرفة ولكنك لم تعرها أدنى اهتمام.. تعلم أنك تأخرتَ في الخروج ولكن لا طاقة لك برؤية أحد في أول صباحات الفجيعة.. تقلب أجندتك، ثمة قائمة طويلة من الأعمال في انتظارك... تشعر بثقل في رأسك وأوجاع في جسدك..وجهك بلون الليمون من كثرة الأرق والسهر...

كان صباحًا كئيبًا مثقلا...

ولكن من أجل الجوهرة والوطن والبحارة ما تزال صامدًا.. تعيد جدولة همومك... ذلك الكأس المملوء بالحب والذي اندلق من يدك تجرحك شظاياه..

لقد وضعت برنامجًا مكثفًا لصيانة السفينة وإصلاح أجزائها المتضررة، ولكن واجهتك مشكلة في الحصول على حوض لصيانة السفينة برغم مخاطباتكم السابقة للحكومة الهندية بالتواريخ المتوقعة لوصول الجوهرة، ومتابعتهم المباشرة لخط سيركم عبر الأقمار الصناعية،

لكنه الروتين وبطء سير المعاملات ورتابة الإجراءات الرسمية؛ أسهمت في تأخر حصولكم على الحوض الملائم لإجراء صيانة شاملة للسفينة وتعديل الصواري.

كانت حجتهم أن الأماكن مشغولة ولا يوجد حوض فارغ للجوهرة، سفينتكم الشراعية معتمدة على الرياح الموسمية، وتأخير يوم واحد بل ساعة واحدة يكلفكم الكثير... وثائقكم مكتملة، وتزداد ثقلا بتأشيراتهم المختلفة، فبين أيديهم تصريح دبلوماسي بدخول السفينة، وشهادة مسجلة تحوي مواصفات الجوهرة، حجمها، وطولها، ووزنها، وتاريخ صنعها... كما يوجد لديكم تراخيص الأجهزة اللاسلكية، لماذا التأخير والمماطلة؟ أمامكم يوم شاق، وعملية إخراج محتويات السفينة تحتاج إلى وقت وجهود مضنية من الطاقم.. الأمر الذي دفعك للاستعانة بالسفارة العمانية والتواصل مع وزارة الخارجية في السلطنة للنظر في الأمر، وبعد متابعات ومحادثات عديدة تمكنت من الحصول على الحوض الجاف، وأعطيت الإشارة للفنيين للبدأ بعملية الإصلاح والصيانة الشاملة للسفينة.

كانت الجوهرة وأحاديث البحارة العناوين الأكثر بروزًا في الصحافة الهندية بلغاتها المختلفة، صوركم بلحاكم الكثة، ووجوهكم الشاحبة تتصدر الحدث، وتحتل ساحة كاملة أو شبه كاملة في الصحف... والتي كانت مثار تعليق أفراد الطاقم... تتداخل أصواتهم وتتشابك أيديهم تعليقًا على الصور..

ما يزال سعيد الطارشي يتألم من يده منذ حادثة سقوطه من أعلى

الصاري، ولقد تكفلت السفارة العمانية بحجز المستشفى المناسب لعلاجه، فتوجه لإجراء الفحوصات اللازمة يرافقه كل من يحيى الفراجي، وحسين الرئيسي.

ولقد تبين أن بيده كسرًا والتواء غضروفيًا ولا بد من إجراء عملية جراحية بسيطة... ليلة أمس علم أنه رزق بأنثى، فسمّاها الجوهرة.

الوقت يمر بسرعة وعليك أن تغيَّر ملابسك استعدادًا للمأدبة التي تقيمها الحكومة الهندية احتفاء بالجوهرة، والتي ستحضرها شخصيات بارزة من الحكومتين الهندية والعمانية.

يا حديث الجرح بين الحضور... إنك تبالغ في حزنك النبيل... حالتك النفسية أثرت على شهيتك فظل طعامك بصحنه لم تكمل حتى نصفه.. حتى الطعام ما عاد له طعم في فمك، برغم أنك تحب هذه الأصناف البحرية من الطعام... ولكن روحك ما تزال معلقة في سقف الحب... صورتها تراها في كل الوجوه، تداهمك من حيث لا تتوقع... وحروفها الملغومة تلهث في أذنيك، تستعيدُ كل حين عبارتها التي طالما رددتها على مسامعك:

ـ أحببتك ويكفي؛ لأصنع لك وطنًا من حب.

تمر بالناس ولا تراهم وإذا رأيتهم تنسى أن تلقي عليهم التحية، مما سبب لك الكثير من الإحراج، الشعور بالفقد مؤلم جدًا، تشبّه حبها لك بالمطر في غزارته وقصر عمره، استغراقك في عالمك الداخلي يشعرك بالذنب أمام المهام الجسام التي تنتظرك!!

تسير في نهارات الهند الحارقة قاطعًا عشرات الكيلومترات بحثًا عن الأخشاب المناسبة لإصلاح الصاري، أعداد هائلة من البشر، أطفال يرتجفون جوعًا، ورجال بأعمار مختلفة يتسولون الحياة، بؤس يفترش قارعة الطريق ويئن من لفح الفاقة والعوز، عيناك معلقتان بأعين القادمين والراحلين كأنك تبحث عن شيء ما، في الأحزان تستيقظ كل الموجودات فتتماهى فيها الروح، مررت بمقهى مفتوح على هذه الفضاءات الخضراء، تشعر برغبة شديدة في شرب كوب من شاي الكرك، تحتسي شايك المفضل على مهل، يهمس توم في أذنك:

ـ مثل هذا الشاي اللذيذ، لا يُشرب على عجل.

وبالقرب من المقهى شاب يعزف الناي لكوبرا ترقص في سلة من الخوص، أخرجتَ له كل ما في جيبك، لستَ تدري أكانت مكافأة لعزفه الناي الذي تحبه أم لرقصة الأفعى التي أسهمت في اجترار مواويلك الحزينة..؟! كلما توغلت في الزحام يزداد شعورك بالوحدة، تغازلك أشجار الساج العتيقة الممتدة بجذوعها العريضة والقوية، تطيل النظر إليها، وتهمس لصاحبيك أنها تصلح للصارية...

النهار يقترب من نهايته، تغوص في الزحام، كرنفال من المتسولين وباعة الياسمين، تخنقك رائحة زيت النارجيل المختلطة بالعرق..

أخذ توم يساوم بعض التجار على صفقة من الخشب أغرته بعروقها وتقاسيمها الجميلة، تحتاجون إلى شراء كمية من خشب الساج لاستبدال الصارية المكسورة... تقتربان من الهدف، ثمة أخشاب جيدة،

إنك تستطيع أن تفهم لغتهم، ولكن لن تتمكنوا من شراء الكمية التي تريدونها، أمام التعقيدات التي ضاعفت من سوء مزاجك، تعقيدات لا تتواءم مع هزات الرأس والابتسامة اللطيفة التي تتخلل أحاديث الهنود.

روحك تنفر من المكان، تهمان بالمغادرة.. الأبقار تسد الطرق والشوارع، تتبختر في المحلات التجارية ولا أحد يتحرك أو يرف له جفن، تعامل بدلال، نظرًا لقدسية الأبقار... خطر ببالك عاملنا الهندي الذي هرب من المزرعة يوم العيد.. أخبرت صاحبك عن قصته، وما قاله قبيل الرحيل:

ـ لا شيء يرعبني أكثر من منظر بقرة تُساقُ إلى الذبح..!

هذه القدسية من أين أتت؟ لا تعلم، ولا هم يعلمون...!!

بدأتْ مهمتكم تزداد تعقيدًا، أربعة عشر يومًا قضيتموها في الهند، ولم تتمكنوا من استبدال الصاري الذي يبلغ حجم كسره مئة وثمانين درجة وبعمق ثلاثة سنتيمترات، إنك لا تستطيع المجازفة والسير به في ظل الأنواء المناخية غير المحمود عواقبها؛ لذا قمتم بتركيب صارية صغيرة مساندة للصاري المكسور كي تحميه من السقوط حين تعترضه الدوامات المائية العملاقة.

(4)

لامجال للتأخير، أعلنتَ لطاقمك أنكم ستغادرون مرفأ كوتشين صباح الغد، أبلغتَ الجهات المتابعة لكم، كما هاتفتَ المسؤولين في السفارة العمانية ووزارة الخارجية، ولكن وقع النبأ كان مختلفًا على توم فوسمر...الأب الروحي للجوهرة والمشرف على المشروع منذ أن كان فكرة... لقد كان يشعر بالتوجس منك، ويرى نفسه المسؤول عن الجوهرة من ألفها إلى يائها.

وقف بوجهك رافضًا الإذعان لأوامرك، ومحتجًا على قرارك الذي وصفه بأنه مفاجيء وديكتاتوري، وأن الطاقم ما يزال بحاجة إلى المزيد من الراحة... إنك تُقدر هذا الرجل وتحترمه، لكنك في هذه الأمور لا تعرف المهادنة، ولن تسمح لأحد باقتحام أبوابك المحصنة... أنت القبطان وصاحب القرار... والأخبر بأمور الملاحة... وبرغم ذلك حاولت أن تحاوره بهدوء، وأن تستوعب فكرته، وتوضح له أن الأجواء في المحيط الهندي لا تبشر بالخير، وأن أية ساعة تبكرون في الخروج، تشكل لكم

فارقًا، وأية ساعة تأخير ستكلفكم الكثير في ظل صارية مكسورة، ثمة عقبات لا يصح فيها إلا الإقدام، ولكن توم لم يستطع إدراك ذلك، وربما أنه لا يريد؛ لقد اختلطتْ في ذهنه معالم الحقيقة... يريد أن يبقى ولو استغرق البحث عن الصارية شهورًا...

كان من الصعب عليك أن تتبين نظراته التي يخفيها خلف نظارته السوداء الداكنة...لكن انفعالاته واضحة،عروق رقبته تتوتر بالدم المندفع، وخطوط جبينه تنعقد بقوة.. خطواته العصبية تفصح عن مدى القلق والتوتر الذي يكهرب مسام جسده... لقد كان شديد الغضب... غير مكترث بالهمس المندهش الدائر بين زملائه، هذا الرجل يسبب لك الكثير من الإزعاج بتصرفاته غير المبررة، تكاد تصرخ في وجهه:

مصلحة الجوهرة وسلامة البحارة فوق كل اعتبار.

لقد تعلمت ألا تقدم على شيء إلا قبل التفكير بعواقبه، وألا تأخذك الأفكار البراقة... ولا تردعك الأفكار المثبطة، تشعر بانقباض في القلب، تساورك الظنون في ردة فعله، السهام الغادرة التي تلقيتها جعلتك لا تثق بأحد، وبات كل شيء في نظرك سوداويًّا.

كنت تتساءل في داخلك:

ـ هل أدرك هذا الرجل مدى انكساري وحجم جرحي فاستضعفني، وأراد أن يضعني في موضع التابع ويسلبني أدواري؟!

كان إريك يستمع إلى حواركما ويتلفت حوله في ارتباك... فتدخل في الوقت المناسب.. معتذرًا:

ـ يبدو أن توم شرب الكثير فأصبح من الصعب عليه التفكير بعقلانية.. ولا أستطيع التكهن بأي شيء آخر.

ولكن توم دفع يده في شعره الرمادي... مسحه مرة... مرتين... إنها حركة لا إرادية يقوم بها تلقائيًّا حينما يكون متوترًا... فجأة صرخ بحدة:

ـ إريك، لست مخمورًا وإنني أعي كل كلمة أقولها، الصارية بحاجة إلى إصلاح ولن تصمد حتى المرفأ القادم...

تقاطعه:

- دكتور توم الجوهرة في عُهدتيَ، وأضمن لك وصولها بسلام إلى سيريلانكا، لا تخشَ شيئاً، سنلتقي هناك.

أخرج من جيب بنطلونه الخلفي علبة وأشعل سيجارة... وأخذ يدخن ويتابع خيوط الدخان المنبعثة من سيجارته، والأخرى التي ينفثها من فمه... كأنه يبحث فيها عن شيء أضاعه... وظل يدور حول نفسه كالممسوس... ثم مضى مبتعداً بخطوات طويلة... وسحب التبرم تنعقد ما بين عينيه وتتضح على جبينه... ثورته العارمة هذه أثارت انتباه الجميع في الميناء، المكان يعجُّ بالبشر تتداخلُ اللغات والأصوات، أناس تهرول وآخرون يبحثون عن أوراق أضاعوها...

ـ رفع الصوت، والنرفزة، والعصبية اعتبرتها نوعًا من التعجرف، وإهانة لا تغتفر... وأنها تكشف عن عداوة مفاجئة تضطرم في داخله، وبرغم ذلك ترفعت أن تقابلها بالمثل... ومما لا شك فيه أن هذا الرجل قد دنس قدسية العلاقة التي تجمع طاقم الجوهرة؛ كما اخترق أعراف البحر وأخلاقه التي ينبغي ألا تخترق... كان على استعداد للعراك ولكنك آثرت

الانسحاب، لا رغبة لك في الجدال، وأنت تهم بالانصراف... التفتَ مخاطبًا إريك:

ـ غدًا ستغادر الجوهرة.

فطن إريك لما ترمي إليه، فلحق بك معتذرًا نيابة عن توم وملتمسًا له الأعذار، ربت على ذراعك عدة مرات وهو يخاطبك بحميمية:

- توم رجل أبيض القلب وأنت أدرى به يا صالح، نيته حسنة ومعدنه ذهب خالص، فقط من باب الحرص على الجوهرة... وما جاء هنا إلا لإنجاز مهمته.

إنك لا تريد أن تتذكر متاعب الإبحار ومشقة السفر... تعب الجسد مقدور عليه لكن وجع الروح لا طاقة لك به.

طمأنته أنك نسيت الأمر، وأن كل شيء في داخلك قد انتهى بسلام، وبدأت بالاستعداد للرحيل وشراء المزيد من المؤن...

اجتمع السيد بدر بكم ، طمأنكم أنه تم التخاطب مباشرة مع الحكومة السيريلانكية؛ لتقديم الدعم الفني والتسهيلات اللازمة لشراء الصارية.

قضيت ليلتك تجمع شتات حروفك، وتلملم رماد حرائقك الملتهبة في دفتر خواطرك الذي يرافقك كظلك، وتجتهد في إخفائه عن الأعين... كم من الساعات قضيتها وأنت تجترُّ ذكرياتكَ وتدوِّن بكائياتكَ...!

تقول بحرقة:

ـ لن يكبر همي ما دامت مفكرتي وقلمي بيدي..!

في تلك الأوراق بوحٌ، واعترافٌ، وصراخٌ أبكم، نصوصك جميعها

تتحدث عن عواصف الحنين، ومنال الحلم القريب، والعاشق الذي نفد صبره...

هذا الدفتر الذي طالما تطفلتُ على صفحاته أقرأُ خربشاتكَ بعد كل رحلة.

وفي انفعال وجنون كتبتَ الكثير من الصفحات... لم تنسَ تفاصيل التفاصيل... تكتبُ... وتكتبُ... يسيحُ حبرُ الكلمات بين أصابعكَ، تحتاج أن تنام وتريح رأسك كما تشتهي.. تعبتَ من اليقظة والنبش في خبايا الذاكرة، توجهت إلى فراشك ... تحاول أن تغمض عينيك المتعبتين..

تساؤلات كثيرة تداهمك، هل سأستطيع ممارسة طقوس الحداد على الجوهرة ؟ وأي حزن يغطي مساحات الفقد والغياب..؟ وهل ستحتضن الجوهرة ابنها المهزوم وتبكي معه بحرقة..؟!

تهز رأسك بشدة، تطرد أسراب الأفكار والحوادث المتتابعة... مصحفك مفتوح.. تقرأ.. تنشد شيئًا من الهدوء...

تحتاج إلى النوم، ويراودك الأمل برؤية حلم جميل؛ للتنفيس عن كوامن الرغبات في داخلك... الساعة التي غفوت فيها.. رأيت البروفيسور يجرك إلى عمق المحيط .. وأنت تهوي في ظلمات وراء ظلمات... كذئبين كنتما تتناوران، تشعر بتوجس..

لقد قرأت مرة أن الإنسان ما هو إلا امتداد في عالم الروح... وأنه يستطيع التحكم في نوع حلمه، وحجمه، كما يستطيع منع الأحلام المزعجة.

تحدث نفسك:

الأحلام رسائل خفية إلينا.. توم صديق رائع وفي الوقت نفسه خصم يخشى جانبه.

هكذا أنت منذ عرفتك، تؤمن بالأحلام، تحلم في الليل، وفي الصباح تجتهد في إيجاد التفاسير، تسأل صديقًا، بعد أن تكون قد فتشت عن معناه في كتاب ابن سيرين...تظل أيامًا تستعيد الحلم منشغلا بالتأويل.

قُبيل الرحيل لفت انتباهك البروفيسور توم وهو يسترق إليك نظرات خفية، يراقبك من حيث لا تدري، كلما تأملت وجهه وجدته عابسًا، يركن إلى الصمت كلون من ألوان الاحتجاج، تشعر بالألم وتأنيب الضمير، منذ شجاره معك وهو ملتزم الصمت، ومنزوٍ على نفسه، لا تريد أن تكدر صفو إنسان، القليل من العقلنة يلزمك، لا مكان للعواطف أمام مصلحة البحارة وسلامة الجوهرة... عاهدت نفسك أن تحقق أهداف الجوهرة الداعية للمحبة والساعية للسلام... كما أن أخلاقك العالية لا تسمح لك أن تترك أحد أفرادك وفي نفسه شيء من العتب عليك.

يبدو أن بعض الأمور كانت ملتبسة في ذهن توم، لقد رسم لنفسه المهمة التي يقوم بها في كل مرفأ دون أن يلتفت لطبيعة الإبحار وأجوائه.

كان مديرًا ظهره، اقتربت منه، ناديته باسمه، لم يرد، ولم يلتفت إليك كعادته... وضعت يدك على كتفه وهززته برفق... استدار إليك، ابتسم في وجهك،فبادرته:

-أيها الصديق العزيز، هاتِ يدكَ.

مدَّ يده، فصافحته بقوة. لقد قرأت في زرقة عينيه الكثير من الود.

هذا الموقف أضاف إلى رصيد كل منكما الكثير من المحبة في قلوب البحارة، شخصيتكما المؤثرة تجلب لكما الاحترام والتقدير، في هذا التوقيت بالذات وفي هذا المكان المعزول، يحتاج كل واحد منكم أن يشعر بإنسانية الآخر.

الدرسُ الخامس

سرنديب الجزيرة المبتهجة ..

(1)

تشعر بانقباض غامض وأنت تهم بمغادرة الميناء... تختلط في داخلك زغاريد الفرح بأصوات النحيب، الحكايات تُلوِّن الأماكن، وكوتشين ارتبطت في ذاكرتك بكرنفال من الأحزان يقيم فيه كل صنوف الوجع المقطر بمرارة الفجيعة... تريد أن تغمض عينيك وقلبك وذاكرتك المنهكة وتبحر بسلام، لا شيء يجيرك من جراحك المثخنة سوى البحر... فالبحر هو الضوء الذي تقع عليه ثملا كالفراشة... إنه مهربك العذب، وها هو البحر بمده العالي يلقي تحيته إليك، والأمواج بصخبها تناديك...

الريح تهب قوية من الاتجاه الجنوبي الغربي وهو الاتجاه الصحيح لمسار السفينة، لم تعد ترى مرفأ ولا ساحلا... الجوهرة تمخر عباب البحر بسرعة متجهة إلى سيلان.. صوت تكسر الأمواج يعيد إلى ذاكرتك كل التفاصيل الصغيرة التي تتغذى على مواجعك... والبحر يفتح أمامك كل الجراحات، هذا البحر مسكون بالقصص والحكايات مثلك تمامًا...

أليست هذه هي الأمواج التي كنت تتوق أن تغرق في لجها مع عشيقتك؟ كم تمنيته غرقًا هادئًا ناعمًا، وبالفعل، أغرقتك منال في وحل هواها..!!

كل شيء قد تغيّر، لم يعد المحيط نفسه ولا الأمواج نفسها... كل شيء آسن في نظرك... أكادُ أسمع صوت نحيبك، وأشعر بعمق جرحك، كنت تحدث نفسك قائلا:

ـ موحش هذا الكون من دونك منال.. لا أستطيع أن أنسى، وهل من اليوم فصاعدًا عليَّ أن أتكلم عنك بالفعل الماضي، بعدما كانت أحاديثنا معًا تشير إلى الزمن المستقبل...

الأنظار مصوّبة إلى البحَّار الجديد الذي انضم إلى طاقم الجوهرة... ميلاي براباكار وهذه منهجية الرحلة أن تسير الجوهرة كما كانت تسير السفن الشراعية في القرن التاسع... أن تقل في كل مرفأ ترسو فيه حمولة من الركاب كل حسب وجهته.

تحلق البحارة حول ميلاي المفعم بالحيوية والحماس... وشرع يقصُّ عليكم قصته وكيفية انضمامه إلى طاقم السفينة، قائلا:

ـ نشأت في تشيناي بالهند، منذ الصغر كان يراودني حلم أن أعمل بوظيفة تمكنني من الطواف بالعالم ، الإبحار نزهتي الكونية وهذه الهواية أسست لدي الرغبة في الالتحاق بالكلية البحرية في تشيناي.

تدرج ميلاي براباكار في الملاحة البحرية من مشغل لاسلكي إلى ملاح، وحاليًّا يعمل مهندس إلكترونيات في سفينة غوص تعمل في حقول النفط بالخليج العربي، لديه الكثير من الذكريات السعيدة عن

الأماكن الغريبة التي أبحر فيها، كما ذكر لكم العديد من الحوادث غير السارة التي تعرض لها في فترة عمله، مثل: عواصف شمال الأطلنطي، وهجوم القراصنة عليهم قبالة سواحل الصومال منذ عشر سنوات، لكنه يؤكد أن عمله مختلف، جمعته بالبحر صداقة عظيمة، ويصف نفسه بأنه رجل البحر بل مجنونه.

كنت تصغي إلى ميلاي براباكار باهتمام.. وأنت تحدث نفسك قائلا:

ـ كلنا مسكونون بالحنين الدائم إلى البحر ..للبحر سحره الذي يدفع قاطنيه للغوص في مجاهله، الماء قدرنا..

لفت انتباهك وهو يتحدث أن لديه لازمة، يدخل يده تحت قميصه ويظل يمسح على صدره طوال حديثه، يقوم بهذا لا شعوريًّا فسرت الأمر في داخلك أن هذا الرجل عاطفي أو مثقل بالهموم وربما يكون قلقًا لذا يعمد إلى هذه الحركة من باب التخفيف من حدة الاضطراب...

وردًا على سؤال فهد حول كيفية انضمامه للجوهرة، أجاب:

ـ قرأتُ إعلانًا صادرًا عن رابطة القوارب الهندية، ورابطة اليخوت الهندية تطلبان متطوعين للعمل على متن جوهرة مسقط، وبصفتي بحار محترف، تمنيت أن أجرب الحياة على سطح سفينة شراعية تعيد الزمن للوراء، لدي شغف كبير بتعرف أساليب الملاحة القديمة، وهذا ما دفعني للتقدم بشغل وظيفة عضو بطاقم السفينة... لقد كانت سعادتي غامرة حينما علمتُ بقبول طلبي... وأتمنى لو أظل على متن الجوهرة طوال الرحلة حتى سنغافورة، لكن التزامات العمل لن تمكنني من تحقيق هذه الأمنية الغالية.. إنني متفرغ لمدة ستة أسابيع فقط، سأغادركم في مرسى

بينانج...

سرد لكم حكايته من المبتدأ إلى المنتهى... وفور انتهائه من الحديث سمر عينيه تجاهك كان ينتظر تعليقك..

وبصوت جهوري خاطبته:

ـ ميلاي باراباكار أهلا وسهلا بك بيننا، إنك مكسب كبير للجوهرة، ولاشك أننا سنستفيد من خبرتك وتجاربك الثرية في مجال الملاحة البحرية.. وبما أنك رجل تهوى المغامرة ستجد في الجوهرة الكثير من المتعة...

ثمة وجوه لها كاريزما خاصة ما إن يقابلها الإنسان مرة حتى يشعر بألفة عجيبة نحوها.. تترك في النفس انطباعًا لا ينسى... هكذا هو ميلاي باراباكار الذي جمعكم به الفضول المعرفي الشبق لارتياد المجهول..

كل شيء هادئ، كنت تحملق في الفضاء وابتسامة مرسومة على شفتيك... من بريق عينيك يبدو أنك متيم، قصص الحب الكبيرة هي التي تدخل صاحبها في تأملات عميقة... وهذا المساء أسطوري يشبه لوحة سريالية صاغتها ريشة فنان في لحظة تعانقت فيها النشوة بالجنون... مفردات هذا المساء لا يفقه معناها سوى قلب عاشق مترف لم تبرح فتاته ذاكرته ..

وهأنتذا تعود مجددًا إلى صمتك، وغربتك، وأحزانك، وانكساراتك المعلقة على مدامع المساء... لا علة بك غير العشق... فضلت أن تظل في القمرة بعيدًا عن أعين البحارة.تدوّن في مذكراتك كل حدث بدقة تامة، هذه لمذكرات هي التي مكنتني من التعرف ادق تفاصيل

الرحلة... قسوة الإيجار، وعواطفك العنيفة، وغدا باتكَ الأليمة.

السماء تمطر أنينًا خافتًا بدأ يتعالى شيئًا فشيئًا... وهذه الزرقة العذبة تلطف القليل من عذاباتك وتنتشلك من ذاتك...

كل شيء في هذا الفضاء الممتد والكون الشاسع يدعو إلى التأمل والتفكير في أحوال الإنسان وتتابع الزمان... أزمنة تنتهي وتفنى؛ لتصبح ماضيًا... البحر يرنو الى السماء، والسماء بدورها تحتوي على ماء، ماء عذب وآخر مالح، جدلية أبدية، تصوغها مفردات ربانية، الشمس تبخر، والأرض ترتوي، ويبقى البحر المنبع والمصب...

كل واحد من البحارة غارق في أحلامه بطريقته الخاصة، البحر بأنوائه المختلفة ملهم البشرية بخيالات خصبة لا تنضب، وتأملات لاشاعرية شاردة

إنك تؤمن أن الزمن نسبي يطول بفقد الحبيب، ويقصر في لحظات اللقيا، كم كانت فتاتك فاتنة في نظرك وأنت تستعيد عباراتها حرفًا حرفًا... تجد في كل حرف من حروفها إغواء للتشبث بها أكثر وأكثر... لقد كانت روحها بمثابة الخميرة التي تعينك على صنع المعجزات...

طوال الوقت تردد في نفسك بحرقة:

ـ منال حب لن ينتهي إلا بالموت.

(2)

تتقدم الجوهرة على وقع هزيع الرعود ..متجهمة كئيبة في نظرك... حتى الأمواج باتت في عينيك منطفئة... ما عاد لها ذات الوقع، لقد تغير لون الحلم الوردي صار رماديّا بلون الضباب... ينتابك ألم في رأسك، صداع يكاد يفتك به، تضغط بأصابعك على جبهتك بقوة، ثم تمررها على صدغيك حتى تخفف من حدة الوجع الذي لم تفلح حبتان من (اكسترا بندول) بتخفيفه.

كنت تحدث نفسك قائلا:

ـ فتاة مثل منال جديرة أن تُحبَ؛ الحب يصادفها في كل خطواتها لرقة طباعها.

قُدِّرَ لك أن تعيش على ذاكرتك، تقول:

ـ لم يعطني الله ذاكرة إلا تحريضًا منه لمزيد من الحب.

وستظل مخلصًا متمسكًا بوعدك حتى النهاية، بات العالم في

نظرك صغيرًا وأحزانك آخذة في الاتساع والتجذر، لقد قُدّر لهذه الحالة السوداوية التي تلبّستكَ أن تمتد طويلا.

يا أنتَ، التمادي في الحزن لون من ألوان النرجسية، ما توقعتَ أن تلفظك فتاة، وأنك عندما توضع في الميزان قد تطفو كفتك.

المؤونة التي حملتموها معكم، جعلتكم تعيشون في رفاهية أيامًا... وطباخكم البارع أحمد العدوي كريم جدًا معكم، المائدة تمتد.. والأصناف تتلون وتتعدد، الفترة التي تتجمعون فيها لتناول طعامكم لها حلاوة لا تنسى، وأحاديث الشباب الجذلى لها مذاق مختلف، لم يتخلَ آدم عن سخريته وعشقه للنكتة والضحك، لحظة واحدة، يمتلك مزاجًا متفردًا، بينما سعيد الطارشي يلعب دور النهام، أصوات البحارة ممتزجة منسجمة تردد وراءه:

يا الروح يا المشتاقة

نار الهجر حرَّاقة

ويل الشقي من عوقه

نهيّل يالله نهيّل

رفعوا الدجل لا يميَّل [1]

السعادة والطرب يستيقظان في الجوهرة... هتافات الفرح تتعالى في كل مكان، البحارة يصفقون ويصفرون ويرددون بإيقاع واحد كأن لهم

١ـ لوحة بحرية للشاعرة عائشة الفزاري قُدمَّتْ في مهرجان العيد الوطني الخامس والثلاثين.

أحبالا صوتية واحدة... ويتمايلون معبرين بحركاتهم الاستعراضية عن أهوال البحر... تهزك الكلمات، وتتسرب إلى مسامك فتملأك نشوة... تحاول أن تبتسم... وتخبئ جرح روحك في صمت ابتسامتك... تشعر أنك بحاجة إلى الضحك... تتسع ضحكتك.. هكذا أنت لا تحتمل الحزن كما لا تحتمل المرح الطويل... ثمة من يشدو بأوجاعك ويترنم بآهاتك، كأن عبئًا جاثمًا ينزاح عن صدرك مع كل ترنيمة تشدو بها... تصدح خلفهم بصوت مثخن بالجراح والشجن:

يا الروح يا المشتاقة

نار الهجر حرَّاقة

ويل الشقي من عوقه

تضحك ضحكة مفتعلة... ضحكتك تتحول إلى قهقهة... تقهقه بلا توقف ومن دون اتزان برغم أن الموقف لا يستدعي ذلك... لكنها ضحكات جافة لا طعم لها، فالحب الذي توهمت أنك وجدته أضحى بعيد المنال كالسراب لا تمسك منه إلا بذكريات جارحة... وأحلامك الملونة قد تحولت إلى رمادية.

كنت تعد الأيام في قلق كبير... ما يزال أمامك أيام حتى تصل إلى ميناء جال في سريلانكا.. وتباشر البحث عن الصارية المناسبة للسفينة.

ثيابك مبللة والأمطار منهمرة... ونفسك منقسمة إلى قسمين: واحدة منشغلة بالصارية والمهمة التي تسعى إلى إنجازها، والأخرى هائمة

في ذلك المدى اللامتناهي، وفيها من اللوعة والصبابة والشجن الكثير الكثير، ثمة حزن واسع يخترق روحك ويشلُّ جسدك؛ سببه"الحب" ذلك الوهم الجميل الذي لا تجد فيه سوى لذة الألم... فحينما يهبط الليل، تهاجمك صورتها، تأتيك بغتة من حيث لا تدري...

الأمطار منذ غادرتم لم تتوقف تتراوح بين الخفيفة والمتوسطة.. والبحر غاضب وتخشى ألا يسمع نداءاتك العميقة...تشعر بالحيرة والدهشة والارتباك في آن واحد، وفي كل مرة تردد بتحسر:

ـ يا شبيهة المطر، أعترف أنني خسرتك.. خسرتك...!!

طاهرة كالمطر كانت في نظرك، ونقية كقطرة ماء.. بلا ذكراها لا تستطيع أن تعيش.. هكذا أنت تلون ساعاتك باجترار أحاديث العشق التي لا بداية لها ولا نهاية داخلك..

مسرف في عواطفك ولا تعرف الاعتدال .. أشعر اللحظة بكراهية نحوك، وحقد كبير عليك، ولكن ثمة امرأة انتقمت لي.. ولو كانت خصمي فلقد اقتصت منك، تخلت عنك بإرادتها، وبشكل مخزٍ، وخلفتك بقايا إنسان...!!

(3)

زوابع هوائية مصحوبة بالرعد، وابل المطر يزاد انهماره.. ودعامة الصارية تئن وتحشرج... ثورة الريح وجنون المطر كسرا ما تبقى من الصارية... بادر كل من إياز والسنغافوري وأحمد البلوشي بإصلاح الصاري وتثبيته بالحبال، والبرق ينهش جلودهم، الجوهرة مسؤولية الجميع... وأية انتكاسة أخرى قد تعرض الجوهرة للمزيد من المخاطر.

وضعت في حسبانك تكثيف مراقبة الصارية... بحيث يتناوب البحارة ويتعاقبون كل ساعتين للصعود إلى الدقل.. يطيب للسنغافوري حينما يغافلك التسلق بيديه ورجليه، إنه يرقى الصواري ببراعة كأنه قرد..

جيف له طريقته الخاصة في التعبير والحركة والالتفاتة، حتى مفرداته اللفظية تدفعكم دائمًا للتأمل وكأن فيها كل الحكمة، لعلها نبتت في داخله بسبب إحساسه بالغربة برغم أنه مرح وحيوي، فهو طفولي المزاج... ينزلق بسرعة من البهجة إلى الحزن كما تنزلق السمكة في الماء...

جيف شاب في نهاية العقد الثاني من عمره، طويل القامة، متسق

تقاطيع الوجه، معتد بنفسه، وبذكائه، ومهاراته التي أهلته للانضمام إلى الجوهرة، يأسر القلوب بحلو حديثه، لقد أصبح صديق الجميع خلال فترة وجيزة، يعمل في وزارة الخارجية السنغافورية دبلوماسيًا من أصول صينية، ولد في سنغافورة بعد أن هجرت والدته بلادها وتزوجت بسنغافوري، وعاش يحمل اسم زوج أمه... وانغمس في حياته وعمله بسنغافورة، يراوده الحنين بين الفينة والأخرى للعودة إلى جذوره الأولى والاجتماع بأسرته من أبيه في الصين...

كلما عربد الحزن في روحه، وأثقلته الغربة، وألمَّ به الحنين، تصبح الصواري قبلته، تتجمد نظراتكم عليه في ترقب وهلع، يحبس أنفاسه برهة... ويتابع الصعود حتى يقف كالمارد على قمة الصارية... يرفع يديه كأنه يهم بالطيران... معلنًا تمرده على الحياة والقدر... يجذب نفسًا عميقًا، ينظر إلى السفينة التي ينتمي إليها والبحارة وكأنه منفصل عنكم... يعيش اللحظة وراء اللحظة... يرنو ببهاء النيه إلى الأفق البعيد، ويشدو بأغنية تتحدث عن بحار قديم...

يتجمع البحارة، يصرخ كل من روُبرت وإريك ينهيانه أن يكف عن هذا الجنون، كنتم تتصببون عرقًا، تخشون عليه أن يُصاب بدوار الهواء ويفقد توازنه... قد يسقط وتتحطم جمجمته... تؤنبه كثيرًا... ويصرخ فيه إياز:

ـ جيف هل هناك شيء يستحق المشاهدة؟

وفي كل مرة يجيبكم بالعبارات نفسها:

ـ التسامي في ركوب الصواري والوقوف على قمتها، له لذته ورسائله الخفية لا يدركها إلا من عاش كنه اللحظة.. هنا أشعر أن روحي أكثر رحابة من السماء، آه لو تجربون التنفس في الأقاصي... تشعرون بالهواء يتخلخل في كل مسامة بجسدكم.. فتستيقظ كل حواسكم..وأن ثمة نشيد يملأ الدنيا طولا وعرضًا لا يسمعه غيري..

ينادي:

ـ ماثيو، أريدك أن تلتقط لي صورة تكون صرخة في هذا الليل المدلهم..

وبصوتٍ أعلى يصيح بكم:

هلموا معي،تحرروا من جاذبية الأرض يتجدد حبكم للحياة...

وطفق يدور بين الصواري على شكل دائرة، ويقوم ببعض ألعاب الخفة، يضحك البحارة ويتغامزون... يقفز إلى الأعلى بخفة ورشاقة، ويؤدي حركات أقرب إلى لاعب سيرك... ثم يرفع قبعته، ويصيح:

ـ نشوة الصعود تمتص المتاعب، وتخلع عن الذاكرة ما يؤرقها عند اهتياج الكدر، وأنا في قمة الصواري أمنية في قلبي تتضرع إلى الله أن تنزل السماء أقصى ما تستطيع من البرد والمطر والثلج.. وتبلل روحي المجدبة... الاغتسال والتطهر بماء المطر...في الأعالي له نكهة أخرى، إنه الصفاء... إنه الجنة...!!

سرعان ما يهبط جيف من جنون العبقرية إلى واقعية العقل، ثمة جاذبية غريبة تشد الروح إلى الموطن الموعودة به فتتماهى في خدر

الومضات الخاطفة حين تعانق الأفق .. في داخل كل إنسان طفل ضاق ذرعًا بأقنعة العمر وما فيها من كآبة وخطوط وتجاعيد.. يهفو إلى لحظات ينأى فيها عن كل التشوهات، ويتحرر من الماضي والحاضر والمستقبل وما فيهم من تشويش وضيق واضطراب... يتجاوز ذاته ويعبر حدود المطلق... ويسافر بالروح في اللاهنا واللازمان...

كنت تجد أن عادات البحارة متباينة ولكنها تستحق المجاراة.. يتحلق مجموعة من البحارة حول جيف يدورون معه حول الصواري دورات ودورات... عيونهم معلقة في الفضاءات الممتدة كأنها تبحث عن سموات مضيئة للحرية، وفيها من الحيرة والجزع الكثير... ثم ينشدون:

هي بالله هو يا يلي

يا مال يا سلام

اللي مالي يا سلام

هو لو با لله بادي يا سلام

رددوا الأغنية وأعادوها بأنغام لا حصر لها، صوت البحارة وهمهماتهم القوية تهدر في أرجاء المكان، لا أحد منكم ينكر إعجابه بالسنغافوري وبجو المرح الذي يختلقه... وكثيرًا ما كانت تأخذك كلماته بعيدًا تفكر فيما يكمن وراءها.. له أبجديته ونشيجه الخاص، كنت ترى أن الروح الباحثة عن الفردوس هي التي تتطلع إلى السماء...

البحر حكاية أبدية... والمصور ماثيو يتفنن في إظهار سحر اللقطة، يجوب السفينة ذهابًا وإيابًا، يقف في كل الزوايا مواجهًا للشمس تارة

ومعاكسًا لها تارة أخرى... وكأن كل صورة يلتقطها لا تمت للأخرى بصلة، لكل صورة لون مختلف وظلال لا تشبه صاحبتها تجعلك في حيرة، لها أبعادها العميقة وملامحها الخفية..

- نعم، للصورة روح وعقل ووجدان.. ثمة عزف منفرد وموسيقا كونية تنبعث حتى من البورتوريهات، هذا ما كان يردده ماثيو.

ماثيو فيلسوف محترف يتلاعب بتقنيّة الكاميرا وكلاسيكية الصورة... وفنان ذو مزاج أصيل لا يمتلك الحذلقة الكلامية وليس ماهرًا في فن الحوار، ولكنه يمتلك لغة الصورة وحسًا سورياليًّا، يجيد اختزال الحدث في لقطة ممتلئة بالزمن... لطالما كانت المراكب، والسفن الذاهبة إلى البعيد مصدر إلهامه... والبحر بتمرده وطغيانه يقدم فيه الصورة المثلى للحرية والانطلاق...

كانت معنوياتكم مرتفعة، وهمتكم عالية للوصول بالسفينة إلى سيريلانكا، الود والتفاهم والسلوك السوي والأخلاق الراقية هي السائدة في الجوهرة، وهو ما كان يخفف من حدة المعاناة، الكثير منكم يجد في الجوهرة متعة عمل ومتعة روح حيث لا وجود للزمن.

(4)

في هذه اللحظات كنا في حرامل نستضيف طاقم من قناة أبوظبي الوطنية للجغرافيا بالمنزل، لقد أجروا حديثًا مع والدك ووالدتك، وقاموا بتصوير المنزل وشاطئ حرامل... تحدث والدك كثيرًا عن طفولتك.. واصطحابه إياك في رحلات الصيد، والمتعة التي كانت تغمرك وأنت طفل تعلو وتهبط بالقارب مع الأمواج... وشرع يتحدث عن رحلات الصيد التقليدية التي كانت لها طقوسها الخاصة وملامحها المختلفة، وعن المخاطر التي تعرض لها وهو يبحث عن الأماكن الزاخرة بالسمك... لقد اختتم حواره بالعبارة التي طالما ألقاها على مسامعك:

- مَنْ كان الله معه لا يضيع أبدًا.

أما والدتك فقد كان حديثها مركزًا حول خوفها وقلقها عليك من أهوال البحر ومخاطره... تحمل في ذاكرتها العديد من القصص عن غدر البحر، تبكي وتتضرع إلى الله أن تنهي مهمتك بسلام وتعود مرفوع الرأس.

لقد كان من ضمن خطة البرنامج أن أجري معك حديثًا عبر الثريا ينقل على الهواء مباشرة عبر قناة أبوظبي الوطنية للجغرافيا، ولكنني رفضت بشدة، ولسببين: الأول، إنني أعلم جيدًا أنك لن تسعد بسماع صوتي ولا تحمل لي ذرة شوق، والسبب الثاني، أنني لا طاقة لي باحتمال رنة الشجن المنبعثة من صوتك والتي أعلم جيدًا خفاياها.

أسندوا المهمة إلى أختك أمينة وبعد محاولات عديدة تم التقاط الإرسال بالجوهرة، والتنسيق مع ماثيو لتقوم بالرد على المكالمة المرتقبة والتي تبث على الهواء مباشرة، حينما سمعت صوت أمينة لم تتمالك نفسك أجهشت بالبكاء، ومضت ترفع معنوياتك، وتبث على مسامعك كلمات التشجيع، أمينة شخصية قوية وثابتة...

جاراتنا أم مبارك وأم زكريا وأم سعيد وبناتهن جميعهنَّ كنَّ حاضرات امتلأ المنزل من دون دعوة، وما إن ارتفع صوتك في المكان، حتى انطلقت زغاريد طويلة عالية من أفواه الحاضرات وكذلك الشايب عبيد صديق الوالد كان حاضرًا، الابتسامة لم تكن تفارق شفتيه، حرامل في تلك اللحظة كانت تشعر بالفخر بل عمان بأكملها تزهو بك... لم أستطع أن أثبت عينيَّ في عينيك ولو كان عبر الشاشة ثمة شرخ يمنعني...

قضيتُ اليوم بأكمله أُحاولُ أن أجدَ تفسيرًا لسبب بكائك أتراه خوفًا من المجهول ومن الإخفاق في الوصول وتحقيق حلم يعوِّل عليه الوطن كثيرًا، وتنتظره بفارغ الصبر دولة صديقة؟! أم أنك وجدت منال في شخص أمينة وهي صديقتها الأثيرة، وبكاؤك كان بكاء شكوى وإحساس بالفقد..!

ظل والدك منشرح الصدر مسرورًا أيامًا، حتى عاوده الحنين إليك..

كانت مسقط في تلك الأيام تمر بمنخفض جوي، كنتُ أحوجُ ما يكون إلى دفء ذلك الرذاذ لعله يغسل ما قد علق في روحي...

الاحتفائية التي تجدونها في كل مرسى تشعركم بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقكم... فتزدادون برًّا وتفانيًّا للجوهرة.. الجوهرة هذه الأم العظيمة التي تملكتكم حبًّا فأصبحت قطعة من أرواحكم.. بعد أن انتهت مراسم الاستقبال في ميناء جال توجه كل واحد منكم إلى غرفته.

الدولة التي ترسون فيها مكلفة بحماية الجوهرة والحفاظ على أمنها وسلامتها حتى تغادر المرفأ، ومن باب الاحتراس كنت تضع مناوبين لحراسة السفينة وحماية أمتعتكم... لفت انتباهك كثرة الجرذان في الميناء، فتوجست خوفًا أن تصل إلى الجوهرة، وتعيث فيها فسادًا؛ لذا قمتم بتسييج الجوهرة بالألواح، وطلائها بأدوية مضادة للفئران، كما قمتم بدهن الحبال بمادة تحميها من القوارض..

الجوهرة أثارت دهشة الجميع، أناس يتقاطرون فرادًا وجماعات... يرددون:

ـ عرب قادمون بسفينة شراعية لا محرك لها، ويتساءلون:

ـ كيف أبحرتم بها..؟! وكيف تمكنتم من قطع جل هذه المسافات..؟! كيف استطعتم التكيف مع الجوهرة والعيش فيها..؟ !كيف .. . وكيف.. وكيف...؟!

أغلبية السكان يتقنون اللغة الإنجليزية، مما سهل عملية التواصل

بينكم، تتناثر الحكايات في سيريلانكا حول سفينة شراعية تُبحر إلى سنغافورة، تقفز قصص البحارة العرب إلى المخيلة.. إنهم يتحدثون عن سطوة البحر وأهواله، وفراق الأهل، ومشاق الرحلة...

أفواج مختلفة من الطلاب على ظهر السفينة في زيارات منظمة للمدارس بهدف تعرف تاريخ الأجداد في الملاحة البحرية وصناعة السفن الشراعية..

تجولت في الأحياء مكتشفًا بعض دهاليزها..صادفت جاليات كبيرة من العرب مجتمعين وكأنهم على موعد، يتجولون بملابسهم التقليدية، ويحملون معهم عاداتهم وتقاليدهم، لقد نشأت صداقة بينكم وبين أبي حمزة الحضري، كانت تلك المرة الأولى التي تلتقيه وجهًا لوجه ..سمعت عنه كثيرًا، وهاتفك أكثر من مرة، في عينيه خشونة البحر وقساوته، أما الخطوط البارزة على جبينه فتعكس مدى الحزم والصرامة الملتصقة بطباعه، سحنة وجهه تنبيء عن جذوره الأولى، كان يتحدث بعربية مفهومة، ويرتدي إزارًا وفانيلة وقحفية بيضاء، وبصحبته شيخ أثقله العمر يبدو ضئيل الحجم، منحني الظهر، علمتَ أنه صهره.

بادرك أبو حمزة بقوله:

ـ جذوري تعود إلى اليمن السعيد.. توارثنا صناعة السفن جيلا بعد جيل، استهوتنا هذه الجزيرة منذ قرون فاستوطنا بها، لقد اختارها أجدادنا بأنفسهم منفى لهم.

تحدث عن حضرموت واليمن وعمان قديمًا بأنهنَّ من أخصب بقاع

الجزيرة العربية لا يطأ هذا المرفأ ملاحًا أو أميرالا بحريًّا مولعًا بعلم الملاحة إلا وذكر ذلك ثم ربت على كتفك، وهو يقول:

ـ يكفينا شرفًا يا رجل أن سليمان المهري منا، ومنكم أحمد بن ماجد.

عقبت على حديثه قائلا:

ـ سليمان المهري وأحمد بن ماجد ليوث البحر وسادته، لقد وضعا دستور البحر والتقاليد الملاحية.. وكتبهم في الملاحة البحرية وعالم البحر أدلتنا في كل خطواتنا..

تذاكرتم طويلا هؤلاء العباقرة الذين تنحني لهم الجباه إجلالا..لقد ركبوا سفنهم الشراعية نحو محيطات مجهولة في ظروف وتجهيزات بدائية معتمدين على الخبرة والملاحظة في رحلاتهم البحرية، كما حدثك عن تجاربه العابقة بالذكريات وأحلامه، ومغامرات الحضارمة على مدى قرون عديدة حتى أصبح لهم نفوذ كبير في سيلان أو سرنديب كما كان يسميها العرب قديمًا، وصاروا قوة لا يستهان بها، ما أثار دهشتك هي ذاكرته البلورية التي تحتفظ بأدق التفاصيل.

سيلان تشع نورًا في قلب هذا الرجل.. يتحدث عن المكان بحميمية، وجال جزيرة تهوى الغرباء، تبدو شامخة بجامعها الإسلامي ومدارس القرآن، أخبرك أن هذا الجامع الذي يسمى جامع جال الحضرمي هو الذي بقي أعجوبة لم يمسه أذى حينما دمر الطوفان الجزيرة منذ أعوام.

منظر الأطفال وهم متلفحون مصاحفهم الصغيرة كل صباح يعيدك إلى مرابع الطفولة الأولى وتداعياتها... الطابع العربي واضح وجلي في

المكان، يفوح عبقه في الأزقة... كما اكتُشِفَ في جزيرة جال آثار عليها رسومات عبارة عن آيات قرآنية مكتوبة بالخط العربي الكوفي، يعود تاريخها إلى بداية القرن الخامس عشر الميلادي... خطر ببال السريلانكي محمد إسماعيل أن يقوم بنقش بعض الآيات القرآنية الكريمة على عارضة القيادة وكتابتها بالخط الكوفي... أثنيتما على الفكرة أنت وتوم.. الزخرفة لغة الفن الإسلامي، والخط الكوفي جمال لا ينتهي، يقال إن الإمام علي بن أبي طالب هو أول من ابتكره، وينبغي الحفاظ على هذا الإرث العربي الأصيل.

بدأ محمد إسماعيل يخطُّ البسملة على العارضة... الحروف تتهادى بين أنامله أنيقة. وكبيرة. وواضحة، إنه خطاط ماهر، تقليد الخطوط العربية يستهويه كثيرًا ولكنه صعب من وجهة نظره يحتاج إلى مقاسات دقيقة وصبر وتأنٍ... اكتفيتم بخط البسملة لأنها أخذت منه جهدًا كبيرًا، يقول محمد إسماعيل بتواضع وهو يبتسم:

ـ إنني شبه خطاط، ومحاولاتي ليست إلا من قبيل الهواية التي ابتدأت بالخط على رمال الشاطئ مستخدمًا أصبعيَّ السبابة والوسطى..

أثارت البسملة دهشة متابعيكم في أمريكا، فوردت إليكم أسئلة عبر موقع الجوهرة في شبكة المعلومات الإنترنت تستسفر عن ماهية هذه الرسومات ومعاني النقوش الجميلة.

(5)

يحكى أن المراكب الصينية كانت تلتقي بالمراكب العربية والساسانية في سيلان منذ القرنين الخامس والسادس الميلاديين... وتحديدًا في ميناء جال... لهذا المرفأ ضجته وعذوبته وحضوره وآماله منذ القدم، وبمساعدة الحكومة السيريلانكية تمكنتم من الحصول على تصريح لزيارة إحدى غابات خشب الساج الطبيعي في شمال كولمبو، هذه الجزيرة التي حباها الله بأشجار الساج السامقة... نهارها مصطبغ باللون الأخضر...

الفيلة تسرح وتمرح في الشوارع دون أن يزعجها أحد، ساعة كاملة حتى وصلتم إلى مكان الغابة، ولجتم دروبًا ضيقة غير ممهدة تحفها مزارع الأرز، وبعد عدة انعطافات ودورات تمكنتم من الوصول إلى الغابة، تذوب في المنظر كأنك تمشي على وقع الحلم.. غابة تضج بالحياة... أصوات خرير المياه تأتيك من بعيد كالصدى، أشجار كثيفة

متداخلة الغصون تكاد تحجب نور الشمس، فيتسلل من بينها الضوء خافتًا له ظلاله الآسرة... الأغصان تتمايل نشوانة مع النسمات الرقيقة... والطواويس تختال بدلال أمامكم بألوانها الزاهية...

غابة متدثرة بكلّ مفردات الجمال، وترفل بأوشحة الحسن... مشاهد ساحرة توحي بأشياء وأشياء... وتحرّض مائيو لالتقاط الصورة تلو الأخرى...

عملية اختيار الأشجار الملائمة لاستبدال الصارية المكسورة... تحتاج إلى دقة وخبرة... لذا أسندتم المهمة إلى أليساندرو ولوكا بحكمها خبرته في هذا المجال... ترافقه أنت وتوم وسعيد الطارشي... استغرقت عملية البحث عن الشجرة المناسبة أربعة أيام.. تقارنون وتدققون في الأشجار حتى تمكنتم من العثور على شجرتين متكاملتين طول كل منهما عشرين مترًا ووزن كل واحدة طن ونصف، وسُمك جذعيهما كبير جدًا حسب بغيتكم بما يتناسب وحجم الصارية... كأنهما وجدتا خصيصًا للجوهرة، تناولتم وجبة الغداء في مطعم ريفي يطل على الغابة من الخلف...

قدمت لكم الحكومة السيريلانكية تسهيلات كبيرة لتتمكنوا من شراء شجرتين من أشجار الساج لأنهما ملك خاص لأفراد وقد كنتم كرماء معهم... كما قمتم بشراء شتلتين صغيرتين لزرعهما مكان الشجرتين المقطوعتين، وتم تسليمهما رسميًّا من قبل السفير العماني في سيريلانكا

لممثل رسمي من الحكومة السيريلانكية، ولقد تم تسمية الشجرتين بجوهرة مسقط من باب التوثيق للحدث.

تم قطع الشجرتين، وسيتم نقل أخشابهما إلى ميناء جال خلال الأيام القليلة المقبلة... وتبين لكم أن عمر إحدى الشجرتين خمسون عامًا وعمر الأخرى ثمانية وأربعون؛ عرفتم ذلك من خلال عدد الدوائر المحفورة بجذع الشجرة، ففي كل عام يمضي على الشجرة تتكون دائرة.. ليبلغ مجموعها سنوات عمر الشجرة...

ـ سبحان الخالق..!!

هذا ما كان يردده كل من عرف المعلومة من البحارة..

بدأ النجارون بعملية التهيئة لصنع الصاريتين، قص الشجرتين، وتهذيبهما لتتوافقا مع طول صاري الجوهرة الذي يبلغ ثمانية عشر مترًا، استعنتم بالبحرية السيريلانكية في الحصول على الأدوات اللازمة للشروع في العمل.. وبدأ الفريق بالعمل المكثف والمتواصل ليل نهار بإشراف مباشر من توم.

عملية تثبيت الصارية شاقة جدًا.. لا توجد لديكم آلة لرفعها .. وعملية تركيبها تحتاج إلى تركيز وجهد كبير، وعملية التسلق مرهقة في هذا الجو الحار المشبع بالرطوبة.. وقد بذل النجارون الفنيون جهدًا جبارًا.. قسمت العمل إلى مجموعات ..الساحة مفروشة بنشارة الخشب.. وصلعات مختلفة تبرق تحت الشمس.

العيون محمرة من كثرة الإجهاد والتعب.. تنزلق قطرات العرق من جباه الكثيرين إلى حواجبهم.. وبقع العرق تتسع دائرتها على قمصانهم، السواعد السمراء بعروقها البارزة وبقبضتها القوية تمسك بالإزميل ..تعمل بلا كلل.. كل حركة من حركات المنشار أو الإزميل مشحونة بمعاناتكم، تتفقد الجوهرة وتتابع عملية تركيب الصارية ورفعها.. وأنت تردد:

ـ عظيم.. عظيم..

كنت مرهقًا من العمل بفعل الأرق والكآبة التي عاودتك مرة أخرى،ماثيو يوثق بالفيديو تارة وبالصور تارة أخرى، هذه المشاهد ستتحول إلى تفاصيل أشبه بالخيال، تركيب الصارية يحتاج إلى عملية نحت، أبجدية تتقنها أنامل الفنيين بالجوهرة، والعمل على الصارية يستغرق من النجارين وقتًا طويلا يتراوح ما بين اثنتي عشرة ساعة إلى ست عشرة ساعة في اليوم الواحد...

أما حبال الصواري والتي تعرف باسم "مانيلا" تم جلبها سابقًا من الهند، وهي مختلفة في قطرها إذ تتراوح بين ستة عشر مليميترًا وخمسين مليميترًا وحجمها يتوقف على وظيفتها فبعضها واقٍ يساعد في دعم هوائيات السفينة الشراعية، بينما يستخدم النوع الآخر؛ لرفع الأشرعة وخفضها.

وفي غمرة العمل على الصارية سقط أحد الألواح على كتف إريك، فأُصيبَ بجرح عميق في ذراعه.. كما وقع لوح آخر على ظهر قدمك،

شعرتَ بآلام حادة في رجلك اليسرى، تمتد إلى ساقك وركبتك، كما أصبتَ بتسلخات جلدية... أصابعك متورمة ومكسوّة بالدم.. بقيتَ أيامًا تعاني من التهاب حاد في قدمك، السفينة بيئة نشطة لتكاثر البكتيريا... والجلد المتسلخ ما بين أصابعك يهرشك من جراء تجمع الفطريات..

تداوم على تناول المضادات الحيوية والحبوب المسكنة بينما زميلكم إريك يرقد في المستشفى، حالته سيئة وتماثله للشفاء بطيء جدًا.. منذ ليلة أمس وفكرة العودة إلى مسقط تلح عليك... تعاودك ذكريات حسبتها مطمورة من وقت ولكنها عادت تطفو على السطح.. نفسك الولهى قد شفها ألم الفراق، هاتفت أمينة، سألتها:

- ما أخبار منال يا أمينة؟ هل ترينها؟ آصحيح خبر زواجها ؟

أكدتْ لك أن خبر الزواج صحيحٌ، وينبغي أن تلتفت إلى نفسك وتنساها، أمامك مهمة.. وعودتك إلى عمان لن تُغير من الواقع شيئًا، لقد غيرت منال رقم هاتفها ومسحت أرقامك، وحذفت رسائلك وصورك من ذاكرة هاتفها..وأنها رأتها كما لم ترها من قبل جميلة وسعيدة مؤمنة بصواب القرار الذي اتخذته، وأنها تقضي جل وقتها في التجهبز لعرسها القريب، ولقد أعادت إليَّ هداياك جميعها، سلمتني إياها ، وهي تقول:

توقفت أمينة لحظة عن الحديث ثم سألتك:

ـ صالح، أتريد أن تعرف ما قالته منال؟!

ابتلعتَ صدمتك، وأطرقتَ تفكر، ثم سألتها بشفتين مرتجفتين:

ـ أمينة تكلمي، ماذا قالت؟

ـ قالت: صدقيني يا أمينة ما توقعت أن أرتبط يومًا بصالح..إنه ليس لي، صالح له زوجة وأولاد إنهم أحوج مني إليه؛ ومن أجلهم استعجلت نصيبي.

شعرت أمينة باستيائك فحاولت أن تخفف عنك قائلة:

ـ الحب يا صالح يحتاج إلى تضحية، والعاشق أعمى لا يميز بين الربح والخسارة، وهذا الحب لن يجلب لك سوى الهم والكآبة.

ألجمتك ردة فعل أمينة، ظننتها ستحاول أن تعيد المياه إلى مجاريها، ولكنكَ كنتَ تتوسل إليها بالمستحيل، وهي تعمدتَ أن تكون صريحة معك، أخبرتكَ بتفاصيل التفاصيل لتنتشلك من سياط الذكريات التي تتداعى في قلبك المفجوع..كلنا نعلم أن التفاصيل الصغيرة تهزك وتربكك دائمًا، ولكن تفاصيل هذا الخبر أصابتك بهلع حقيقي.. هلع ممتزج باكتئاب... تشعرُ أن حبك لم يعدْ له مكانًا ولا صورة ولا زمانًا.. وترى أن الفقد في الغربة له وقع مختلف.. وأمينة قاسية بردة فعلها.. لكنها أرادت أن تنتشلك مما أنت فيه فتابعت حديثها:

صالح، اسمعني جيدًا منال تزوجت وما عدت تعني لها شيئًا؛ هي الخاسرة وأنت الرابح، إنك ربحتَ عائلتك وأنقذتَ أبناءك من الشتات

والتمزق.

حزن مدمر يعصف بروحك، وهواء بارد يملأ رئتيك، تنأى عن أصحابك ..غارق في بحار التأملات، سارح في الفضاء الذي يلفك.. تصيخ لتأوهات الموج، وسواد مطلق يغلف المدى، تحدث نفسك أنك لم ترَ في حياتك يومًا أشد سوادًا من هذا اليوم، وأن الدهر قد أوقعك في حبائل الشقاء.. تتصنع التماسك، من عمق الألم كنت تتظاهر بالفرح وترسم الابتسامة على وجهك، إنك مزحوم بها، تسير معك، صورتها تراها مختبئة في كل مكان، تطل عليك بابتسامتها من وراء الغيوم وفوق الموج.

البحارة على وشك الانتهاء من رفع الصارية،جهد جبّار قام به الشباب إياز وبوشبداس ويحيى وفهد.

الأيام تتسرب من بين أصابعكم، ثمانية عشر يومًا قضيتموها في جال، لا مجال للتأخير أكثر تريد أن تكسب الوقت، جمعت أفراد الجوهرة وخاطبتهم بحرارة وإخلاص:

لا بد من التأكد من صلاحية الصارية، والبدء بالرحيل غدًا، أمامنا خليج البنغال ومتوقعون لما قد يحدث فيه.

التفتّ نحو توم تختبر ردة فعله، ما إن تأملت وجهه حتى توجست شرًا.. ابتسامته كانت مريبة و محيرة، تحمل كثيرًا من المعاني، إنها ليست ابتسامة تقدير.. فأصابع هذا الرجل تفضح قلقه وارتباكته أكثر من ملامح وجهه، تلتمس له العذر في نفسك قائلا:

ـ ضغط العمل له تأثيره في عادات الناس وطباعهم.. ثمة قوى خفية تدعونا للتجاذب أو التنافر، هذا ما كان يدور في ذهنك..

ولكنه صاح فيك:

ـ أيها القبطان كيف تفكر بالرحيل، وأحد أفراد طاقمك مايزال في المستشفى؟ ماذا عن إريك أتتركونه وترحلون؟!

وبهدوء أجبته:

ـ جرح إريك بالغ، ويحتاج إلى وقتً طويل حتى يشفى، لقد تأخرنا بما فيه الكفاية، عمل إريك بالسفينة بإمكان أي شخص أن يقوم به فهو مسؤول عن مناوبة الحظيرة اليسرى، سنبحر وعندما يتماثل للشفاء يستقل طائرة ويعود إلى مسقط.

ما إن لفظت عباراتك حتى قفز في الهواء كمن أصابه مسُّ شرارة كهربائية، استشاط غضبًا، وضرب جبينه بيده، ثم صاح محتجًا:

هكذا وبكل بساطة، لن أسمح بهذا أبدًا ـ إريك من رجال الجوهرة وشهد ولادتها قبلك، حاله حال أي فرد من الطاقم، له الحق في إكمال مهمته حتى النهاية والوصول بالجوهرة إلى مبتغاها.

دهش البحارة لما سمعوا، فوقفوا جامدين مكانهم.. غضب توم المفاجيء وغير المبرر كان مخيفًا... وبات كل منكما في نظر الآخر أحجية معقدة... وأية حماقة من أحدكما قد تعرض حياة الطاقم بأكمله

للخطر.. ولكنك تؤمن بالمبدأ الذي يقول إنه لا دخل للعواطف في العمل.

هززت رأسك عدة مرات ثم استقر نظرك في عينيه اللتين تحملان زرقة البحر وعمقه، فيهما بريق غريب لا تفهمه، لقد تغيرت طباع توم، تغيرت طباعه إلى درجة مخيفة، لكنك كتمت غيظك وخاطبته بهدوء:

سأناقش الأمر لاحقاً مع مساعدي خميس الحمداني، ولكنني لست مستعدًا للبقاء في جال يومًا آخر، إني أرى ما لا ترون...

لمحتَ ابتسامة الرضا والموافقة على الجميع..

أمسك توم بذراعك متوعدًا ولكنك حذرته من التمادي.. مذكرًا إياه بأنك القبطان وصاحب الكلمة الأولى وعليه الانصياع لأوامرك دون نقاش، هذا دستور البحر... وعليهم جميعًا الالتزام به.. وأنك مكلف رسميًّا بقيادة الجوهرة. .

أصبحت الخصومة بينكما واضحة جلية، لم يتكلم أحد من البحارة فقط كانوا ينقِّلون نظراتهم بينكما في استغراب، ثورة توم العارمة كانت موضع تسلية للبعض.

أخرجت منديلك تمسح قطرات العرق المتساقطة من جبينك... وأنت تتساءل:

لماذا يتعمد هذا الرجل أن تكون كلماته جارحة كمدية؟!

قد يبدو توم لدى البعض حاد الطباع فظًا غليظًا، وقد يختلف البحارة

حول عدد من خصاله، لكن الصفات التي لا يختلف عليها اثنان نبله وتمسكه بالعدالة، ورفضه الظلم بكل أشكاله، الجميع يرى أنه قسوتك معه ومعاملته بندية ضرورية، فالمركب لا يقودها إلا ربان واحد وإلا غرقت.. لديك رسالة وأمانة وهي أن توصل الجوهرة إلى سنغافورة بسلام، وأن تعود بطاقمك كما رحلت به.. وأي تأخير في الإبحار يعد مجازفة أو مخاطرة بحياة البقية.

قابلت الطبيب المشرف على علاج إريك في المستشفى فأخبرك أن حالته جيدة، وأن جرحه قد قارب على الشفاء، وبإمكانه مغادرة المستشفى غدًا، شرط ألا تكلفوه مجهودًا كبيرًا.

(6)

الصاريتين الجديدتين... وعند ضحى اليوم التالي كانت الجوهرة تقف في مرساها استعدادًا لمغادرة ميناء جال، أحضر أبو حمزة ابنته فاطمة إلى السفينة- إنها زهرة يانعة في روض الصبا- لتتلو عليكم بعض الأدعية، تشكلتم على هيئة حلقة والطفلة في المنتصف بزيها التقليدي البسيط، وشرعتْ تقرأ الدعاء بصوت مؤثر: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد وصلى الله على سيدنا محمد".

وقامت الطفلة بترديد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾..[2] ثلاث مرات.. كنتم ترددون الدعاء

2- الآية (41) من سورة هود.

وراءها بصوتٍ عالٍ.. ووالدها يعقب خلفكم:

اللهم اقبلْ... اللهم استجبْ... آمين... آمين... إنك سميع مجيب الدعاء.

ودعتم الجزيرة المبتهجة سيريلانكا التي رحبت بكم ثمانية عشر يومًا، لقد كانت سخية معكم.. شكرتم أبا حمزة على حسن ضيافته ومساندته لكم، فربت على يدك قائلا:

الناس للناس يا صالح، والعادات العربية ما تزال تسري في دمائنا.

ثمة أشخاص قلوبهم بيضاء نقية، بعفويتهم تركوا بصمة في داخلكم.. إنهم أكبر من أن يُنسوا، وأكبر من أن يكونوا مجرد وجوه عابرة..

جرت العادة أن يكون وداعكم رسميًّا من الحكومتين العمانية ممثلة بسفارتها وملحقيتها، وحكومة البلد الذي ترسون فيه.. وفي كل مرة ترحب بأفراد الطاقم الجدد الذين يلتحقون بكم، في هذه المرحلة انضم إليكم رئيس فريق بناء السفينة لوكا بيلفيوريتي، ومصور الفيديو مايكل ليثجو بديلاً عن ماثيو الذي انقضت الفتره المحدده له، وودعكم في سيريلانكا.

يوم مختلط، تسطع الشمس تارة وتعبر الغيوم تارة أخرى باحثة عن سبيل.. لقد كنت محظوظًا هذا الصباح، تفاديت عاصفتين قويتين..

انحرفت قليلا لتغيَّر مسار مجراك، انخفضت حدة الهواء، ثم أتت رياح ليست بالقوية في وقت متأخر بعد ظهر اليوم.

غرقتَ في تفاصيل العمل وتوزيع المناوبة بل تكثيفها، كما أجرى أفراد الطاقم تدريب انتشال الغريق، لم يجرِ التمرين بالشكل الذي توقعته، قضيتم أكثر من ساعة ونصف حتى عثرتم على دمية الغريق الذي كان يرتدي طوق نجاة برتقالي اللون، وتم تحديد موقعه، لقد تعلمتم من التمرين بعض الأمور المهمة التي ينبغي أن تضعوها في حسبانكم عند انتشال الغريق.

(7)

شيء ما يجثم على صدرك من الصباح الباكر... ضيق وتوتر شديدان لا تعرف كنههما... برغم أن اليوم الاثنين وللاثنين في نفسك أبجدية مختلفة... تصطنع طقوس الفرح في هذا اليوم عنوة... ولكن الخواطر كالبشر بعضها هاديء وجميل يبعث في النفس الهدوء والارتياح، والأخرى قاسية مدمرة لا تترك الفرد إلا بعد أن تقضي عليه وتدمره..!.

إنكم مستقرون في خليج البنغال أكبر خليج مفتوح في العالم تقدر مساحته بما يزيد عن مليوني كيلومتر مربع، تحده الهند وسيريلانكا من الغرب، وبنجلاديش من الشمال، وفيه يصب نهر الغانج، النهر الأكثر قداسة لدى الهندوس وأهميته الدينية تفوق أي نهر آخر في العالم، تقول إحدى الأساطير إن نهر الغانج يجري في الجنة وقد نقل إلى الأرض لتطهير الأرواح التي ألقي رماد جثثها فيه منذ آلاف السنين.

وتوجد على ضفاف النهر أماكن كثيرة يحج إليها الملايين من الهندوس سنويًّا لغسل خطاياهم في مياهه، متمنين الموت على ضفافه

وذر رماد جثثهم داخل تياراته.

الحديث محتدم بين إريك وبين ساجد وحسين الرئيسي حول ملحمة رامايانا التي حدثت منذ عشرات القرون في نهر الغانج، حيث كان يمضي اليوغائيون حياتهم على شواطئ خليج البنغال، يمارسون اليوغا والتأمل، بهدف الوصول إلى المعرفة العليا.

يقول ساجد:

ـ ورد في الأسطورة أن اليوغائيين كانوا يتعرضون لضغوط كبيرة من الشياطين والمردة الذين كانوا يخرجون من أعماق المحيط يشوشون عليهم أفكارهم حتى يصيبهم الجنون أو الهذيان، لذا ارتأى أحد النساك أن يبتلع المياه بأكملها للتخلص من الشياطين، فتبددت الغيوم من السماء، وانقطعت الأمطار، وغزا الجفاف الحقول فجردها من الزرع، وأحرقت الشمس اللاهبة التربة.

كان آدم وإياز يصغيان بعمق إلى الأسطورة وهما يتناولان التمر، ويشربان القهوة العمانية التي يتفنن أحمد العدوي في صنعها، رائحة الهيل والزعفران تفوح منها ومن إعجابكم بها أسميتموها القهوة السلطانية.. يبهجك هذا التجمع حول القهوة وما يثيره في ذهنك من مواقف وتداعيات..

أضاف إريك:

ـ قام اليوغائيون بالتضرع إلى الله وأداء الصلوات كي تعود المياه تروي

عطش الأرض، لكن الآلهة حسبما ورد في الأسطورة، لم توافق على طلبهم فبقي الوضع على حاله ألف عام حتى حقق الخالق لهم ما أرادوا.

علَّق حسين الرئيسي على الأمر قائلا:

ـ كل ظاهرة غريبة أو مجهولة في البر أو البحر تستدعي تفسيرًا ... ولأن التفسير كان رهن العلم، والعلم لم يبلغ شوطه النهائي، فقد كانت الأسطورة تتولى المهمة...ولا ننكر أن آسيا كانت ينبوع الأديان العظيمة التي عمت العالم بأسره.

في سهرة باذخة البساطة والقمر سميركم، امتد الحوار تلك الليلة وطال، وتشعب إلى مجالات مختلفة، كما تغيَّر البحارة... بعضهم قام لمناوبته الدورية في الحراسة، كما انضم جلساء جدد إلى الحديث الممتد.. جلسات السمر على ظهر الجوهرة لا يمكن أن تنسى أبدًا... وقهوة بالهيل تشعل في أوردتك ثورة من الأشواق العارمة...

يطيب للسنغافوري أن يضع عصابة على عينه اليسرى كالقراصنة، ويتبختر على سطح السفينة، هذه الحركة كانت تثير حفيظة يحيى الفراجي فيعدو خلفه حتى يزيل عصابته من باب الدعابة.. فتتعالى ضحكات آدم الهادرة..

في هذه الديمقراطية الصاخبة قرأت الكثير من طبائع أفراد طاقمك... عدة الشاي رفيقة جلسات السمر لا تحلو الجلسة إلا بها... شارد الذهن كنت تنفخ كوب الشاي قبل أن تشربه.. هذه العادة الملتصقة بطباعك تستفزني كثيرًا.. عدا أنها غير صحية، ولطالما نهيتك عنها لكنك لم ترتدع

عنها.

تتقاذفكم المرافيء وأنتم من حلم إلى آخر للوصول إلى حلمكم الأكبر، لقد كنت معتمدًا على قياس النجوم للوصول إلى مجراك الصحيح.. الملاحة في المحيط الهندي تتعذر على من يجهل سر الرياح الموسمية.

كنت منشغلا في هذه اللحظات مع أحمد العدوي بسبر غور البحر، معرفة العلامات البحرية من أهم أسس الملاحة التي ذكرها ابن ماجد والمهري، وأهم هذه العلامات سبر أعماق البحر، فبمعرفته يستطيع البحَّار أن يسير في الطريق الصحيح الآمن، ويعرف موقعه بالنسبة لموقع المكان المقصود، والأماكن الخطرة والآمنة في البحر، لقد كانت السفن الشراعية قديمًا تحمل مسبارًا للأعماق مكونًا من حبل يبلغ طوله عادة سبعين باعًا، يربط طرفه بقطعة ثقيلة من النحاس أو بحجر.. ومن العلامات التي تعرف بها الأماكن لون طين قاع البحر ورائحته، ونوع الأعشاب البحرية، ومن علامات حدوث الطوفان، أي العاصفة، تغيَّر لون ماء البحر، وظهور السرطان، وارتفاع حرارة الماء وتعكر صفوه.

ـ سفن تتعاقب .. ووجوه تفنى، وأسماء تتغير، والبحر هو البحر.. ثروة البشرية يعطي بقدر ما تمنحه إياه من جهد وخبرة، ولولا البحار والمحيطات التي تغطي ثلثي سطح الأرض ما أصبح هذا الكوكب صالحًا للحياة.

هذا ما كنت تحدث به نفسك، وأنت غارق في أحلامك الطموحة الجامحة، تحاول الهروب بذكرياتك بعيدًا والتواري عن الأنظار في خلوة

أحوج ما تكون إليها.. كان حلمًا أن تتعقب ثرى الأجداد وتلثم ألواح الماضي.. اثنا عشر قرنًا يفصلون بين الزمنين، الزمن الماضي والمتمثل في السفينة الأم التي أبحرت في القرن التاسع الميلادي والزمن الحاضر المتمثل بالجوهرة سفينتكم المستنسخة.

الدرسُ السادس

الإعصارُ قادم...

(1)

شيء ما يلوح في الأفق، يظهر ويختفي كأنه يقوم بمناورة استعدادًا للهجوم.. لاشك أنها عاصفة استوائية قادمة وستكون قوية وعنيفة إنك تجد ريحها.. نبهتَ أفراد الطاقم أن زحف السحب الركامية ينذر بالشر، فثمة ريح هوجاء قد تعصف بكم خلال ساعات قليلة.. وهذا ماتشير إليه اضطرابات البحر المفاجئة، صوت أحدهم يعلو:

ـ ما يزال أمامنا فرصة لاتخاذ الإجراءات الوقائية والأمنية.

وتحسبًا لأي طارىء أعطيتَ شارة الاستنفار، صوت صفارة الإنذار يصم الآذان، ويخترق الضباب، وينثر الرعب في فضاءات المكان.. كانت مجموعة خميس الحمداني في أسفل السفينة موعد راحتهم حينما أفاقوا على بوق الإنذار في تلك اللحظة... الصافرة تقرع بصورة تنم عن حدوث أمر جلل... انقبضت قلوبهم، وتسلل الرعب إلى نفوسهم... فهرولوا مسرعين إلى ظهر السفينة.

هب الجميع في فزع يرتدون سُتَر النجاة، ويربطون أحزمة الأمان ويثبتونها بالسفينة... الضباب يكتسح الأجواء بلا مبالاة، ويغلف المكان

بظلمات دامسة... تضاعف خوفكم من المجهول... عيون البحارة معلقة بالسماء تستجدي لطف الله، ينتظرون بعين الرجاء حدوث شيء واحد أن يتوقف زحف هذا الضباب... فغضب الطبيعة أكبر من أن تختصره الكلمات...

وجهتَ أمرًا بضرورة إنزال الشراع، فهذا الشراع مستطيل الشكل ومهيأ للسير بالسفينة في الهواء الخفيف... الرياح صعبة التحمل... والعارضة مع هذه الأمطار تئن... وضع مثل هذا غير مأمون العواقب... تسألون الله اللطف بكم... وعملية إنزال الشراع الكبير ليست بالأمر اليسير، إنه شراع ثقيل جدًا يحتاج إلى طاقة وقوة بدنية هائلة... والصعود إلى قمة الصارية في هذه الأجواء مخاطرة بأرواح البحارة..

تسلق كل من سعيد الطارشي، وساجد، وجيف الصارية يحثون الخطى ويسابقون الريح لإنزال الشراع... يقفز جيف من دقل إلى آخر بخفة.. وما هي إلا طرفة عين حتى صم آذانكم هدير قصف الرعود... الغيوم تتكاثف والأمطار تنهمر فجأة وبقوة غير محسوبة، ثار البحر واضطرب، لطمات الموج القوية تتوالى على السفينة بقوة وتزيدكم رعبًا، وضح النهار تحول إلى ظلمة دامسة، ريح قوية تدفع المركب دفعًا، وتقودكم عنوة نحو المجهول، بينما كان المصور مايكل ليثجو يطارد الأمواج والعواصف الرعدية يصور ويوثق غير آبه بهذا الاشتباك المخيف والطارئ مع البحر..

غالبية البحارة كانوا يصفون مايكل بأنه مغامر مجنون... وينهونه عن المخاطرة بينما هو يرى أن الرحلة لا تتكرر... وكل خطوة تستحق التسجيل والتوثيق والمتعة معًا...

الطبيعة بتناقضاتها الحادة ماثلة أمامكم... الرياح العنيفة تثور بشكل مفاجيء، وتجعل التيارات المائية تندفع بشدة إنها سبب الكوارث، تكاد تنشطر السفينة إلى نصفين من هول قصف الرعود... الأمواج تتقاذفكم بلا هوادة.. وتُلقي بكم إلى النهاية المحتومة... الخوف يستبد بالبحارة.. يوشك أفراد الطاقم أن ينهاروا، فالنفس البشرية قد تحتمل كل أنواع الأذى إلا غضب الطبيعة.. وأنت كلما تسلل الخوف إلى قلبك توجهت إلى القبلة تصلي وتبتهل إلى الله؛ كنت تدرك عظم المأساة التي تواجهونها..

جُلُّ تهديدات البحر الخطيرة التي كنت تتوقعها تتقزم أمام جبروت هذه العاصفة بل الإعصار الزاحف نحوكم..! الأمواج التي تقاومونها وتتكسر على جوانب السفينة كثيفة جدًا، إنها ترتفع بعلو أربعين قدمًا لم ترها بهذه الضخامة من قبل.. كيف لسفينة شراعية تقل على ظهرها عشرين بحارًا بالصمود أمام قوة الرياح..؟!.

يا لثورة الطبيعة وقسوتها..!! لقد كنتم في مأزق حقيقي..!

يشتد الهرج فوق سطح السفينة وتتعالى الأصوات.. توتر يشل حركة أفراد الطاقم وأجواء مشحونة بالذعر والخوف.. السيد رُبرت حالته تدعو إلى القلق يكاد ينهار من شدة الرعب، في هستيريا كان يسب ويلعن.. ويؤنب نفسه على الانخراط في هذه الرحلة، وبصوت مبحوح كان يردد:

ـ سفينة بلا محرك... كيف لها بمجابهة الكارثة المحدقة بنا؟! هذا انتحار..!! ما الذي جعلني أوافق على المضي معكم... ليتني تخليت عنكم في الهند..؟ كيف لم أجزم بأن هناك مخاطر أكثر تخبئها الطبيعة لكم..! هذا جنون نرتكبه في حق أنفسنا..!!

من بداية الرحلة والسيد رُبرت يبدو متخوفًا... الأفكار التشاؤمية في رأسه أكثر من أن تحصى... برغم أنه جلد صبور على قطع المسافات الطوال.. ولكن طاقة البشر ليست سواء، موقفه كان موضع استهجان من البعض، ولكنكم بحارة رأيتم الكثير من طبائع البشر.. قدَّرتم جميعًا حداثة خبرته، وأنه رجل عاش حياته في البر ولا عهد له بالمجازفة في أعماق المحيطات وبركوب البحر ومواجهة أهواله وتقلباته.. وأن ما يمر به بعيدًا عن خبراته، النقلة من وظيفة معلم إلى بحار ليست هينة، تحلقتم حوله في محاولة بائسة لتهدئته.. ذراعاه ملفوفتان حول رأسه وكأنه يتقي الصواعق أو يذب الموت الذي يحوم حوله، وفي عينيه الزرقاوين الفاتحتين رعب واضح، ظل بعيدًا عنكم منزويًا ومنفردًا بأفكاره.. يتمتم بلا توقف:

ـ لا طمأنينة إلا على الأرض.. لا طمأنينة إلا على الأرض..!.

كانت أزرار قميصه مفكوكة تكشف عن صدره العاري.. قسمات وجهه المتيبسة تجمعت في تكشيرة واحدة تلعن اللحظة والأقدار التي رمت به في ظهر سفينة شراعية.. ارتعاش ساقيه يكشف عن مدى الرعب والتوتر اللذين يسيطران عليه...

كان يصيح مزمجرًا:

ـ موت ولا شراب اللعنة ..اللعنة..!!!

اقترب منه إريك.. مسح على رأسه، وربت على كتفه قائلا:

ـ حسنا رُبرت، هوِّن عليك..

تمر على الإنسان نوبات سوداوية تغيب فيها كل المباديء والمثل التي طالما تشدق بها، تتعرى فيها النفس الإنسانية من زيفها فتسقط الأقنعة وتبرز جُلَّ العقد والأورام النفسية.. التحرر من الذات القلقة والتسامي بها جوهر الحياة.. كنت تشعر بالكثير من الأسى نحوه..

حالة الرعب نفسها تلبستْ يحيى الفراجي، وبقيتَ ترنو إلى وجهه المبلل بالدموع...

البحر بكل ما فيه يندفع نحوكم والطبيعة بكل ما فيها من نرجسية تداهمكم.. والجوهرة كقطعة فلين تتقاذفها الأمواج.. مرة تعلو ومرة تهبط وأحيانًا تنزلق بقوة.. لم يسبق لك أن رأيت البحر بتلك الثورة وذانك الجنون والتمرد؛ فالأمواه كالسيل الجارف تغرق الجوهرة، داهمك قلق خفي أن السفينة الشراعية قد لا تصمد طويلا أمام الزلازل الثائرة..

تأملتَ زملاءك واحدًا واحدًا، تقرأ العلامات المرتسمة على ملامحهم، وجوه متوهجة وعيون تلمع بالقلق، صوَّبت ناظريك نحو الفنيين والنجارين الحالة نفسها تسيطر عليهم، الرعب يأكلهم.. الجميع يتساءل في فزع، ويهذي:

ـ أمكتوب علينا أن نتقاسم ذات المصير؟! أيكون البحر مآلنا ومقبرتنا..؟!

يكاد ينفلت الزمام من يدك أيها القبطان، لولا كلماتك التي أخرجتهم من دائرة الذهول.. صحتَ فيهم بنبرة تعج بالاستهجان والخشونة:

ـ إنني أتفهم قلقكم جيدًا لكن البحر ليس مخيفًا إلى هذا الحد الذي

تتصورون وإلا كيف قطع أجدادنا بسفنهم الشراعية البحار والمحيطات، الطبيعة واحدة وغضبها ثابت لا يتغير.. الغيوم هي الغيوم.. والبحر هو نفسه الذي عبرته سفينتنا الأم.. وهذه الأعاصير والعواصف هي نفسها التي قصفت ابن ماجد والتي قاومها بضراوة، فاستحق بجدارة أن يحمل لقب سيد البحار.. وبالعزيمة والإرادة نفسها سنقهر هذا الإعصار وغيره..

اجتهدتَ في بث كلمات التشجيع وتحفيز الطاقم لتجاوز المحنة، تردد على مسامعهم:

ـ نعم بالإرادة.. الإرادة هذه الكلمة أو القوة العظيمة، ماذا تفعل بالإنسان..؟! إنها قادرة على انتزاعه من مجاهل الخطر وفك الموت..!

شعر البحارة العمانيون بالانفعال والتأثر وأنت تشعر بالفخر لصمود البحارة وحماستهم التي لم تخمد، وفي الوقت نفسه كنت ترى أن الوعظ في مثل هذه الأحوال غير مجد وقد يبدو مضحكًا للبعض.. تسع جنسيات على ظهر السفينة بطبائع وأفكار وآراء مختلفة، كيف يمكنك التحكم بهم والتعامل معهم وسط الخطر المحدق بهم .. ؟!

لا سبيل لكم سوى التوكل على الله.. فكرتَ أن تقوم بتوزيع الأدوار ومهام العمل بين أفراد الطاقم لتشتت مشاعر الخوف والقلق في دواخلهم.

وبدأتَ بتوزيع الأدوار على أفراد الطاقم بعدالة، قسمت البحارة إلى أربع مجموعات وفقًا لطبيعة عملهم، الأولى: مهمتها سحب الحبال والثانية: تقوم بإنزال الشراع ، والثالثة: تراقب السفن العابرة، أما الرابعة: فمهمتها إخراج كميات المياه المتجمعة على ظهر السفينة.

البحارة في نضالٍ مستمر يكافحون المياه التي تغرق السفينة بطرق لا حصر لها، لقد استعانوا بمضختين لتفريغ المياه المتجمعة، واحدة تعمل بالديزل والأخرى يدويَّة موصولة بأنبوب يقوم بتصريف مياه الأمطار وسحبها من السفينة ويلقيها في البحر..

المجموعة المكلفة بمراقبة السفن القادمة تعلن أنه لا يوجد في البحر سواكم بعد أن أمعنتْ النظر طويلا في اليم الممتد أمامها، فالسفن الأخرى تحمل رادارات متطورة لاشك أن التحذير من الإعصار قد وصلها.. الجميع منهمك في عمله...

لقد انشغلوا بالعمل عن التفكير في الإعصار .. وتناسوا الخوف.

سرعة الهواء تزيد عن مئة كيلو متر في الساعة، تحاول جاهدًا توجيه المقود (السكوني) بعيدًا عن ارتدادات الموج الغاضب وتحرك السفينة قليلا عن الشمال.. تصيح في مساعدك:

ـ علينا الانحراف والابتعاد عن خط الإعصار..

ولكن المياه تغمر السفينة من جديد وتُشكِّل حملا ثقيلا .. العمل مضنٍ جدًا.. وذراعاك أصبحتا رخوتين لا تقويان على الحركة.. البحارة عاكفون على شفط المياه ..والبقية على وشك الانتهاء من تركيب الشراع القصير المصنوع من القماش...برغم قوة العاصفة والأمطار التي تجلدهم.

الإعصار يشتد، والعاصفة تزداد ضراوة، والبرق يكاد يقصم السفينة إلى نصفين، ويهزها هزًا، بعض الحبال انقطعت من قوة الموج وشدة الملوحة.. فاختلت الألواح مما أدى إلى تسرب كميات كبيرة من المياه

في السفينة، عدا المياه التي كان يقذفها الموج بقوة على ظهر الجوهرة.. الملابس والمؤونة طمرتها المياه..

في أثناء الإبحار تضعون المجاديف مثبتة على جوانب السفينة في كل جهة مابين أربعة إلى ستة مجاديف، وحين حدوث الصواعق وهبوب العواصف تجلبونها إلى داخل السفينة، إضافة إلى الصاري الاحتياطي المحكم بحبال قوية على جانبي السفينة بشكل طولي.. المناوبة تتركز في مراقبة المجاديف والصاري، وبرغم عملية المراقبة المكثفة في أثناء الإعصار فإن الأمواج جرفت المجاديف، انقطعت الحبال من قوة الهواء والزوابع.. لقد فقدتم مجدافين.

كان اعتصامكم بالصمت أبلغ من أية عبارة.. تنظرون إلى بعضكم بعضًا كالمشدوهين وسط الخطر المحدق بكم، تجاهدون وتناضلون مستمدين من سمو الهدف الذي تسعون إليه قوة وعزمًا.. صاح أحدكم:

ـ سنموت أبطالا.. فالموت في سبيل الجوهرة أكثر إغراءً من حياة معطوبة الأحلام..!!

رد عليه آدم بتهكم:

ـ وما الفائدة أن نكون في نظر الناس أبطالا ما دمنا هالكين...؟

شيء من العصبية والنرفزة تلبستك فجأة فردت عليهم بحدة:

ـ أنتم من اختار دور البطولة، وجودكم في هذه السفينة لم يكن محض صدفة، ولا دخل للأقدار فيها.. الوطن يصلي لكم والتاريخ سيخط في صفحاته رحلتكم بمداد من نور...أدوار البطولة محفوفة بالمكاره

والصعاب، والآلاف من أبناء الوطن يغبطونكم على هذه المغامرة غير العادية.. ولقد أعددتم أنفسكم سلفًا على المفاجآت.. التفاني التفاني لإثبات البطولة.. فالبطولة لا يصنعها فرد واحد.. القليل من الصبر يلزمكم، فأنتم رموز الوطن..

ومن باب الحذر حاولتَ إعادة الأمور إلى نصابها.. مقدمًا لهم المزيد من التعليمات، ومطالبًا كل فرد بالبقاء في مكانه.. كان من العسير في هذه الظلمة الدامسة، معرفة أين قادتكم الأمواج؟ عتمة الإبحار الطويل الشاق ما هي إلا خناجر مسنونة مصوبة في أرواحكم..

أوشكتم أن تنهاروا وتتدحرجوا في جوف الموت.. خطر ببالك أن الموت في عرض البحر يعني الموت بلا كفن ودون دفن.. وأنكم ستصبحون وليمة فاخرة لحيتان البحر والأسماك التي ستتلقف أجسادكم المنهكة تأكلها وتنهشها، الذاكرة في مثل هذه المواقف سخية .. وعلى إثر هذه الخواطر سرتْ رعشة في جسدك كله.

لاح في ذهنك ضرورة اللجوء إلى التجديف فألقيتَ أمرًا بذلك.. أخذ البحارة يضربون بسواعدهم الواهنة المجاديف، إنها محاولات بائسة، المجاديف تضطرب في دوامة الموج...

ولكن عليكم الابتعاد عن العاصفة التي تشتد ثورتها، الغيوم تتركز جهة الشمال من السفينة، حاولتم التجديف مرارًا ولكن لا طاقة لكم به، قواكم شبه منهارة من شدة الإعياء وقلة الطعام ، ليلة ليلاء مضت وأنتم تكافحون، لا محرك في السفينة ينقلكم من مسار الخطر، التيارات تتصاعد على جبال الأمواج، وعملية التجديف وسط الأمواج العاتية

والعواصف أشبه بالمستحيل، مع وزن السفينة الذي يصل إلى خمسمئة طن، ووزن المجداف الذي يزيد عن خمسة وعشرين كيلوجرامًا.

الخشب المثقل بالملوحة والمطر والزبد المتطاير إلى متى سيصمد؟!..شعور بالهلع يتضاعف داخلكم مما قد ينتظركم من مفاجآت غامضة، زمجرة الريح وقصف الرعود صواعق تصم آذانكم، الكلمات تتلاشى في الهواء قبل أن تصل إلى مسامعك فقط كنت ترى شفاهًا تنطبق ثم تنفتح وتتحرك بشكل هستيري...

تحاول مقاومة شعورك بالذعر وتتلافى الحدث، تصرخ من أعماق حنجرتك، تنادي مساعدك الذي كان ممسكًا بالسَّكون:

ـ انحرف خمس درجات بل عشر درجات بالسفينة...

لكنه لم يكن يسمعك برغم أن المسافة التي بينك وبينه لا تتعدى مترًا واحدًا... تضغط على أوتار صوتك، تكرر النداء... لا أحد يسمعك، صوتك يتبدد وأصوات البحارة تضيع في العاصفة، لا تكاد تسمع شيئًا، فقط كنت تبصر أفواها تنطبق وتنفتح بقوة... تهب من مكانك تترنح مع السفينة... تستجمع قوتك وتلقي بثقلك على السَّكون تدير عجلة القيادة بسرعة كبيرة وتنحرف شرقًا... تشعر بألم شديد في ركبتك من قوة الارتطام، لقد ارتطمت عدة مرات بأشياء صلبة من جراء تأرجحك بحكم ارتجاجات السفينة، لم تكن تشعر وقتها بجراحك ولا بالكدمات التي تغطي ركبتيك وساقيك...

الجوهرة تكاد تغرق وتتحول إلى ألواح خشبية صغيرة، أطنان من

المياه تندفع بقوة، وأمام تدفق الأمواه وتجمعها الهائل في السفينة، كان لابد من تدخل عاجل للتخفيف من الحمولة... عجزتم عن نزح المياه المتدفقة بقوة... بينكم وبين الغرق لحظة، تشير عليهم قائلا:

ـ علينا أن نتخفف من بعض الأوزان.

لدى البحارة تعليمات مسبقة بما ينبغي فعله في مثل هذه الأحوال.. رموا أحمال الحجارة التي كنتم تحملونها.. مئة وخمسون حملا من الحجارة، يبلغ وزن كل واحد منها(عشرين كيلو جرامًا) والتي كنتم تستخدمونها في الحفاظ على توازن السفينة، وتقومون بتحريكها بمواضع مختلفة حسب مسار السفينة.. لقد تخففتم قليلا من ثقل الحمولة ألقيتموها في عرض البحر...

محاولاتكم البائسة تتبدد أمام الرياح التي تزداد ضراوة والعاصفة التي لم تستطيعوا أن تخففوا من قوة اندفاعها.. تتقاذفكم الأمواج وأنتم لا حول لكم ولا قوة .. وسط هذه الأنواء بدأ اليأس يتسلل إلى مسامكم، احتمالات كثيرة تتطاول داخلكم وخواطر شرسة تداهمكم.. قد تصِلون وقد لا تصِلون، تيقنتم أنكم هالكون لا محالة.. هذا ما تعلمته من كثرة الأسفار الجاهزية لكل شيء حتى الموت.. رددتم الشهادة أكثر من مرة، ولسان حالكم يقول:

- إذا كان لا بد من الموت فلنمت ونحن لحمة واحدة.. ومادام فينا عرق واحد ينبض بالحياة علينا أن نقاوم... ونموت ميتة الأبطال.

كل الممكنات أضحت مستحيلة.. البحارة على كف القدر.. وشفاهكم

ترتل وتبتهل، كنتم تصارعون الأمواج، وصراعكم لها كان صراع حياة ومحاولة من أجل البقاء.. وتصرفاتكم كانت بدافع الغريزة.. متيقن في داخلك أن هذا الإعصار ما هو إلا احتضار عنيف قبل بلوغ لحظة النهاية.

ريح صرصر عاتية تعصف بالسفينة وتضرب الحبال بعنف.. تناهى إلى سمعكم صوت صدع قوي قادم من مقدمة السفينة، فجأة لاحت لكم العارضة وهي تنشطر إلى نصفين وتتطاير في الهواء، لقد انكسرت العارضة التي تعد الموجه الأساسي للجوهرة... والعمود الفقري للسفينة الشراعية حيث إنها تربط أجزاء السفينة بعضها ببعض... الجوهرة تزداد اضطرابًا وترنحًا... شيء ما سقط على رأس بوشبداس فهوى من وقفته إلى ظهر السفينة، العارضة التي تزن مئة وعشرين كيلو جرامًا وقعت على مؤخرة رأسه، ظل عاجزًا عن الحركة والدماء تنزف من رأسه وتسيل على وجهه... ومن لطف الله بهذا الرجل أنه وقع على السفينة ولم يسقط في البحر.... كان يتألم بشدة من هول الضربة... والعاصفة ما تزال تقلب السفينة ذات اليمين وذات الشمال... بوشبداس أحد النجارين المهرة الذي كنت في أمس الحاجة إليه في مثل هذه الظروف، جثا رُبرت على ركبتيه، وانحنى على رأس بوشبداس يتحسسه في الظلمة... وصاح فيه:

ـ اطمأن جراحك ليست بالغة كما تظن.

تولى إياز ورُبرت عملية تضميد جراح بوشبداس؛ برغم أن القلق الذي يسيطر على رُبرت إلا أن مهاراته في الإسعافات الأولية تجلت في

تأمين العلاج المناسب لبوشبداس باستخدام أدوات علاجية بسيطة، ثم لفَّ رأسه بشاش أبيض معقم يمنعه من التعفن.

لقد كنتم في وضع لا تحسدون عليه بين إنقاذ الرجل المصاب ومواجهة العاصفة، والمحافظة على سلامة السفينة... شعرتم بارتياح عندما تبين لكم أنه لم يصب بأذى كبير... اهتمامكم منصب على ضرورة إخراج مياه الأمطار المتجمعة التي قد تؤدي إلى حدوث خلل في توازن السفينة... التعب ينبعث من عيونكم وتغص به حلوقكم، الإجهاد أكل قوتكم.. وأنتم وحيدون في البحر لا ملجأ لكم سوى الله، لا توجد وسائل إغاثة، ولا سفن مراقبة ولا طائرة تراقب خط سيركم، كنتَ باستمرار ترفع من معنويات طاقمك مشيرًا إلى علم السلطنة الذي يرفرف فوق الجوهرة، ومذكرًا إياهم بالرسالة التي تحملونها.. ليس أمامكم سوى التمسك بأهداب الدعاء.. أجمعتم بدياناتكم وجنسياتكم المختلفة أن الله معكم ولن ينساكم، تشعرون بقربه منكم.

العارضة الاحتياطي التي معكم مقاسها أصغر ولا تصلح لهذه الأنواء.. والخطورة تكمن في عملية تركيب العارضة وسط العاصفة الهوجاء، وأية تأخير ليس في صالحكم وسط هذه الأنواء، السفينة ستسير عكسيًّا مما يؤدي إلى انقلابها وغرقها، سيجرفها التيار بلا رحمة.. !

ـ مهما كانت الإمكانيات متواضعة علينا أن نجتهد، المهم ألا نبقى مكتوفي الأيدي، هذا ما ردده جيف.

وأنت أيها القبطان أفكارك مشتتة.. المياه تغرق السفينة.. ولديك مُصاب.. طاقمك منهك... وعارضتك مكسورة.. فقدت بوصلة عقلك، وتداخلت الاتجاهات برأسك.. صحت فيهم بالعربية، وبالإنجليزية،

ورطنت بالهندية، عصارة تجاربك تطفو على السطح، تصرخ فيهم:

ـ قوى الطبيعة المسعورة فوق طاقتنا وأكبر من أن نحتملها... ما فعلتموه كان عملا بطوليًا.. علينا أن نثق بالجوهرة فهي سفينة شراعية متينة جدًا، ولقد خبرتم صناعتها بأنفسكم، توكلوا على الله ولن يخذلكم في ظروف كهذه، أرسلوا دعواتكم وصلواتكم لرب السماء الرحيم..

تتأمل الأجانب الذين بدأت معنوياتهم تنهار، تناديهم:

ـ إريك... ألساندرو... رُبرت... مايكل... جيف، البحارة الحقيقيون هم القادرون على التشبث بشجاعتهم ورباطة جأشهم في هكذا ظروف.

الموج الثائر يرشقكم بالزبد المتطاير... وزئيره يبعث في نفوسكم الرعب.. السفينة تتقاذفها الأمواج من كل حدب وصوب... كتل ملحية لاذعة تتسرب إلى أفواهكم وتصيب أعينكم...

تجمع الفنيون لمعالجة حطام العارضة المتناثرة بسرعة.. لا وقت لديكم، أمامكم دقائق فقط لإنقاذ حياتكم...

قمتم بتثبيت قطعة صغيرة على العارضة... وتمكنتم من إعادة العارضة مكانها وأنتم تصارعون الريح، البرق يقصفكم والأمطار تجلدكم.

لم يكن هناك شيء اسمه ليل أو نهار أو بحر أو سماء كل شيء قد اختفى، دخلت الجوهرة في كتل من الضباب لم يعد أي واحد منكم يرى وجه الآخر... ثلاثة أيام خلت والبحر ما يزال يبعث رسائله الغامضة، زلازل ثائرة في قاع المحيط، وموج عاتٍ يعلو ويرتفع.. المياه تهاجم السفينة بلا رحمة وتغرق الموجودات، طوفان من الأسئلة تنفجر في رأسك، وشلالات من الأفكار العاتية تداهمك... كانت أفكارك منصبة

في الكيفية التي تمكنك من إنقاذ الجوهرة والمحافظة على أرواح البحارة وتجنبك أية خسارة، ولكنها مع ذلك تثير شيئًا ما في داخلك يشبه القلق أو الحزن الغامض... مشاهد بانورامية تتمدد في روحك المنكسرة، وهواجس عنيفة تستيقظ في رأسك.. كل الأمور صغيرها وكبيرها يومض في لحظة الخطر وكأنها شريط سينمائي..!

تتراءى لك صورة والدتك بوجهها الهادئ الصبور فوق زبد البحر، تنظر إليك نظرة طويلة وحزينة، تحركَ يديها بإشارة لم تفهم مغزاها... شفتاها ترتعش بقوة وهي تتفحصك... فجأة أخذتْ تصرخ وتنوح باكية... شعور جارف ينتابك بأنك لن ترى أمك بعد اليوم، تحاولُ أن تستغيثَ بها ولكنها اختفت، صور سوداوية تقفز إلى مخيلتك... يا لها من تخيلات مثيرة للشجن والسخرية المريرة بل الاشمئزاز..!

ولاحت بذهنك صغيرتنا (صفاء) التي طالما شاكستك في البحر، تتعمد الاختفاء تحت الماء؛ لتشعرك بالقلق أو لتختبر ردة فعلك... إنها تبتسم لك كأنها تواسيك في محنتك، كنتَ تُحملق فيها تستمد من براءتها عزيمتك وإصرارك..

تتساءلُ في عجب:

ـ أيصل الخيال الإنساني هذا الحد من البشاعة..؟! أيرسم كل هذه النهايات التراجيدية المفجعة...؟! أيكون البحر لحدي كما كان مهدي..؟!

لستُ أدريـ يا صالحـ من أين جاءك ذلك الارتباك..؟ وأنت الذي خبرت أهوال البحر طولا وعرضًا.. وعبرتَ محيطات العالم بسفن كثيرة.. ألهذا الحد كان الحزن مائدتك الأسطورية التي تقتات منها بمتعة

عجيبة..؟! أمازال قلبك ينبض باسمها...؟! أمازالت ضلوعك ترتجف حبًا ؟! إلى متى تدفن نفسك في أرخبيل الأحزان.. غارق في اجترار ذكرياتك؟! ودرتك اليتيمة بيد مارد عتيٍّ يحرسها.

أعلم أنك غجري في الحب والوجع..!!!ولكن الانجراف وراء الحب عبوديةـ أيها المتيم؟؟

برغم إيماني أن الحياة لا يمكن أن تتوقف... وأن الحزن لا محالة ينتهي لكنَّ إحساسًا بالقهر يتملكني... وغيرة حمقاء مدمرة تسحقني، وتكاد تقضي عليَّ...! أسئلة ما انفكت تتناسل في رأسي... كيف استحوذت عليك إلى هذا الحد..؟! وعلام... ولماذا...؟

ليتك تعلم أن رياح الشوق تُلقي بروحي فوق أشرعتك.. تتتبعك وتُصلي من أجلك .... بينما أفكارك السابحة مع أمواج البحر تسير عكس التيار... تعيدك إلى الوراء... تتخطى أسوار زوجة وأربعة أبناء.. أصبحوا في ذاكرتك عدمًا... ألم يخطر ببالك لحظة أن تربية أربعة أبناء في زمن اغتربت فيه المفاهيم والقيم ليست يسيرة على امرأة..؟!

لقد وضعك الإعصار وجهًا لوجه مع ذاتك.. تتأمل حماقاتك كما تتأمل مرآتك... وتتوجع من حب لم تتنبأ ساعتها بكل عواقبه القادمة ففجعت بنهايته... حبك لها كهذا الإعصار الذي فوجئت به ولم تكن تتوقعه... وأقولها بكل عنجهية ليست ندًّا لي، ولا ترقَ أن تكون كذلك... ستبقى عائمة على السطح وأنا الدرة الكامنة في الأعماق... لعبتُ دور الزوجة المخدوعة والغافلة بمحض إرادتي، وتركتكَ تتمادى في علاقتك لأختبر جنونكَ أكثر وأكثر...

(2)

اليوم كانت صوركم تغطي صفحتين من جريدة عمان ثمة موضوع عن الجوهرة... لست أدري أمن باب المصادفة أن يتزامن التقرير مع فترة الإعصار الذي يلم بكم أم هي عملية ممنهجة لبث الطمأنينة في أهالي البحارة ومتابعيهم؟!، كنت أتأمل صورك وكأنك أمامي شعرت بحب وزهو كبير نحوك، عمق الجرح ومرارة البعد لم تقتلعك من داخلي ما يزال في القلب بقية من حب... هكذا أنا شقية وسعيدة بك... أغفر وأسامح ولكنني لا أنسى، ألبستَ قلبي ثوب الحداد وقلبك ينبض بقلب امرأة أخرى، ما توقعت أن تكون حياتي معك مملة إلى درجة تقوى أن تحب فيها بجنون... المسؤوليات التي ألقيتها على عاتقي جعلتني عاشقة صامتة... وغيابك الطويل حنط في داخلي كل المشاعر... تلك الفراغات والانكسارات التي انصهرتُ في بوتقتها خلفها غيابك... أصبحت أحاسيسي متبلدة من طول الوحدة، وشدة الشعور بالوحشة... أيكون الجمود والرتابة جزأين من المبررات أو المواصفات التي اجتهدت بطريقة أو بأخرى في إلصاقها بطباعي...؟! لم يشغلني الأمر كثيرًا واثقة من

نفسي... وعليك المزيد من التلفيق والكذب... لتخرس صوت ضميرك...!

جسر من النظرات الحائرة ممتد بينك وبين زملائك، تكاد الرؤوس تشيب قبل أوانها، لم تكن وحدك من راودته تلك الأفكار، منكم من كان يفكر في أطفاله الذين تركهم، والبعض يفكر في والديه المسنين... وآخرون يبكون لأنهم لا يريدون الموت... جلبة الإعصار أخرجتكم من بوتقة الحلم فاضمحلت الصور وتلاشت... استسلمتم لشدة الرياح العاتية التي لم تستطيعوا التخفيف من حدة اندفاعها على السفينة..الأمواج في ارتفاع مستمر تزيد عن ثلاثة أمتار، أصبحتم في مهب الريح جبال من الأمواج تتقاذفكم...!وحمام الموت يحوم حولكم..! صرخات يائسة تنبعث من مواضع مختلفة بالسفينة وعلى مسافات متباعدة..

ما يزال مايكل متلفحًا كاميرته يلتقط الصورة وراء الأخرى ..يترقب الآتي.. غير مكترث بهذا البحر والأمواج والمخاوف المستعرة... صرخ فيه يحيى الفراجي مستنكرًا:

ـ ماذا تصوِّر..؟! الموت يداهمنا وقيامة محتملة ستقوم..!

فقاطعه جيف بحدة:

ولم لا يصور؟!.. اتركه يلتقط الصورة وراء الأخرى كبرهان على جبروت الطبيعة ولعناتها الأبدية.

وتابع بهستيرية:

ـ أتهابون الموت..؟! إنه الرقدة الأبدية، اطمأنوا لا جنة ولا نار، فمرحى مرحى بالموت..!

الشعيبي والفراجي وضع كل منهما يده على فمه ولزم الاستغفار طويلا..

منظركم دفع مايكل ليثجو في البداية إلى الضحك، وحين أدرك حجم الخطر تلبسته حالة هستيرية.. لم يعد قادرًا على اللحاق بهيجان الطبيعة وغضبتها، وأخذ يردد:

ـ أيتها العواصف القادمة بجحافلها، كوني بردًا وسلامًا..

كنتم تتساءلون فيما بينكم:كان البحارة يتساءلون فيما بينهم:

ـ أنستطيع البقاء أحياء أكثر من بضع دقائق؟!

وبعناد غريزي متأصل في داخلك أجبتهم:

نعم وبإذن اللهـ سنصل إلى الهدف..

كان جلُّ همك أن تبقوا على وجه الحياة، و أن تصلوا بالجوهرة إلى مرساها الأخير..

ارتطامات خفيفة ثم متوسطة ودوي قوي... تنزلق السفينة بشدة وتتساقط الأشياء من أماكنها... الألواح تتزلزل من تحتكم... تكاد تنفصل عن بعضها بعض... تغمركم الأمواه مجددًا... تقاومون وتقاومون ببسالة... عظم الغاية التي تسعون إليها تعطيكم دوافع قوية... سفينتكم برغم بدائيتها ما تزال صامدة... وآدم بخفة ظله ما فتيء يضفي على المكان شيئًا من السخرية اللاذعة... ولكن بعض البحارة كان يرى في خفة دم آدم في هذه الساعة سخافة... الإعياء نال من الجميع فهمدوا وسكنوا... طوال

الإعصار وإريك يردد على مسامعك:

ـ إن الاشتراك في المصيبة قد يخفف من حدة وقعها ليس كما لو كنا فرادى... وجميل أن نتقاسم ذات المصير.

لا جديد يوم ينتهي وآخر يبدأ، انقضى اليوم الرابع كما انقضت الأيام الأولى وأنتم تعانون من سوء الأحوال الجوية.. قواكم منهارة من قلة الأكل، كنتم فقط معتمدين على التمر تشدون به صلبكم، سمحت لهم بالنوم ساعتين وبالتناوب، والبقية كخلية النحل في عمل متواصل ودؤوب حتى بوشبداس برغم أن رأسه ما يزال معصوبًا بالشاش.

إنك تعرف متى تسافر بخيالاتك السامقة؟ ومتى تُلقي الأوامر؟ ومتى تغضب؟ ومتى تحزن؟! شيء ما يقذفها في داخلك، كنت تراها بر الأمان الذي تيمم وجهك نحوه حينما تعصف بك رياح الحياة.. تشعر بظمأ شديد نحوها وبرغبة عارمة في البكاء، تريد أن تصرخ مع العواصف تشتكي، وتبكي، وتحصي الجراح والآهات، هكذا كان حبها كالإعصار وحزنك على فقدها ما يزال باذخًا.. لا تكاد تستوعب أنك لن تراها وما عادت لك.. وابل الأمطار تلهب في داخلك مشاعر متضاربة من اللوعة، والصبابة، والشجن تتجاوز كل المشاعر.. تحتاج إلى سنوات وسنوات ليندمل الجرح .. ماء البحر جله لا يروي ظمأ روحك العطشى.. عاصفة جبارة تهيج ذاكرتك.. فتبرق صورتها في داخلك، تجرحك ملامحها..

تدركُ أن للعشق مخالب حادة كما فيه النشوة واللعنة..!!

أعلم أنني ما خطرت على بالك أبدًا.. كنتَ تلعنني في داخلك ..

حانق عليَّ حتى النخاع وكل مسامة في جسدك تلفظني.. تراني الجانية والظالمة بل وحشًا كاسرًا قد دمر حبك، وحال بينك وبين عشيقتك.. وأنني السبب في إسدال ستار فصلها الأخير..

أقرُّ بذلك نعم..!!

أنا من دسستُ السُّم في جوفها لتلفظك ..فعلتُ وسأفعل ما لا يخطر ببالك للحفاظ عليك وعلى بيتي.. ولن أتركك لأخرى وستعود مرغمًا وراكعًا إليَّ.. سنوات الإهمال، والصبر، والبعد، والاغتراب التي عشتها لن يكون ثمنها ضرّة.. ولو كلفني الأمر حياتي، لن أقبل أن أكون الزوجة المكسورة، ولن أترك للحاقدين فرصة التشفي ..ولن أتقبل نظرات العطف والمواساة من المقربين، شامخة بك دومًا وسأظل..

اجتياز البحر محفوف بالشقاء، وقلقاً عليك لا يعادله قلق، كنت المسيطر على تفكيري، خاصة بعد اتصال أحد المراسلين من جريدة الشبيبة أخبرني أن الإعصار الذي تتناقله وكالات الأنباء في خليج البنغال، قد حجب الجوهرة عن خطوط المتابعة وأنهم قد فقدوا التواصل معكم منذ أيام، كتمتُ الأمر عن والديك خوفًا عليهما من ردة فعلهما عند سماع النبأ.

جنَّ البحر واستشرى لجاجه.. وقذفت بالزبد أمواجه، التيارات الجارفة تسوقكم عنوة إلى عوالم مبهمة، البحارة منهمكون في أعمالهم، وريتشارد ما يزال جامدًا كالحجارة، يعيش في صراع داخلي، العالم الذي دخله بعيدًا عن كل توقعاته، الخوف من الموت غرقًا ماثل في وعيه.. ويثير في نفسه أسئلته الظامئة التي ترافقه كظله، والتي تتشكل

على هيئة صراخ مرة، وهمسات مرات، ووضوحًا مرة، وغموضًا مرات أُخر.. شفتاه شاحبتان كالأموات يخاطب من يدنو منه:

ـ تقولون البحر غدَّار؟ وأنا أقول إنه جبَّار وطاغية..! وهذا الإعصار أعظم من جلّ الشرور وأفظع ألوان الانتقام.. ولا طاقة للبحَّار أمام جبروته وطغيانه سوى الرضوخ والإذعان .. لا مبرر لتصرفاته.. تحل الكوارث ويموت الألوف ومع الزمن يصبحون ذكرى أو قصة تتناقلها الألسن.. لا تنسوا أن الفقراء هم المتضررون في أنحاء العالم جميعًا، أهذه هي العدالة الوهمية، أم لعنة أبدية ..؟ اللعنة .. اللعنة على الطبيعة..؟!

صوت أحمد العدوي يعلو:

- رُبرت كفى... كفى... متى ستكف عن ترديد هذه اللعنات؟!

وسط هذه الحالة المرتبكة، صاح آدم ملطفًا الأجواء المشحونة:

ـ أنا لن أغرق في هذه المياه المالحة، سيتعقبني صديقي الدلفين، يحملني على ظهره حتى يصل بي إلى بر الأمان.

كان آدم يختلق المواقف المضحكة، حاضر النكتة، يرسلها مهذبة مبتكرة بحسن أدائه، ويختار لها المناسبة القوية التي تزيدها قوة على قوتها، لا يكف عن المزاح، واقتناص المشاهد الطريفة من وجوه الناس وعيونهم... وابتكار الألقاب، محب للحياة ليس من همومها ما يشغله عن نثر الفكاهة، تجدونه فاكهة الجوهرة التي لا تمل... طوال الرحلة لم تصدر منه حركة أو ملمح ينبيء عن الحزن أو الاستياء، آدم صديق الجميع... يقال إن أكثر الناس تهكمًا وسخرية يخفون وراء ضحكاتهم

سلاسل من الأحزان والآلام، فماذا يخفي آدم من شجون؟!

لم يكن لديك طاقة للحوار والنقاش اعتصمت بالصمت القاتل... وفكرك يتخبط حائرًا وضالا فيما وراء عبارات ريتشارد... كنت ممسكًا دفترًا صغيرًا، دونتَ هذه العبارة: "بلاهات البشر وحماقاتهم تدعو للبكاء لا الضحك...".

استلم مكانك خميس الحمداني بعد إلحاحه عليك؛ لتأخذ قسطًا من الراحة... وقبل أن تنصرف ألقى على مسامعك هذه العبارة:

ـ جميل أن يموت الإنسان وهو في كامل قواه العقلية والبدنية.

لم تعجبك نبرة التشاؤم التي تفوح من عبارة خميس، ولو كان ظاهرها مزاحًا..

الرياح تسوق الجوهرة عنوة إلى ظلمات الضباب الحالكة.. هذا النضال المرير قد لامس الجانب الزهدي التقشفي في نفس التاميلي؛ لفت انتباهك أنه كان مطمئن البال، وأن شيطان القلق لم ينل منه شيئًا إنه الحضور الإلهي، لقد كان غارقًا في صمته يرنو ببصره إلى الفضاء وكأنه ينظر إلى شيء لا يراه سواه، سنه الذهبي يلمع بين شفتيه النصف متطابقتين، دوار مفاجيء ينتابك.. كنت تشعر بالغثيان وبدوار شديد، تكافح خشية السقوط، لم تتمالك نفسك تهالكت على المقعد.. أقرب موضع من ساجد، وضعت يدك على ركبته منبهًا إياه، كان يحدق في اللاشيء..آلام الظهر التي يعاني منها سببها الانحناءة الطويلة والجلسة غير السليمة.. التمرينات العلاجية التي أرشدته إليها وبدأ بممارستها

أفادته قليلا.. لاحظت أن عينيه كانتا عسليتين بلون السنابل .. حول بصره من أمواج البحر المتعالية إلى وجهك، وبلغته التاميلية تمتم في عذوبة ببعض العبارات غير المفهومة كأنها في نورانيتها السكينة أو صلاة سماوية؛ ولكنك تعمدتَ التعليق بسخرية:

ـ الإعصار الذي يطوقنا لن تدفعه التعاويذ ولا التراتيل، ثمة تواطؤ عجيب وغريب بين الطبيعة والموت... نسأل الله أن يعيننا على مواجهة هذا الخطر العظيم.

افترت شفتاه عن ابتسامة مطمئنة هادئة، فأشرق وجهه، تساءل:

ـ من أين يأتيك هذا السكون وهذا النور؟

وبنبرة اليقين أجاب:

السكينة والطمأنينة التي تسري في داخلي مردها أنَّ الله مقيم بخاطري، لقد خصني الله دون عباده بأمر سأطلعك عليه ليس من باب الفخر، ولكن من باب أما بنعمة ربك فحدث؛ ثمة قوة خفية تحميني وتدفع عني كل أذى.. أجدها تنعكس على هذه العاصفة الهوجاء فتحفني كالنسمة وتمضي، أراكم تتأرجحون ذات اليمين وذات الشمال وأنا ثابت مكاني، لا يصيبني من ريحها إلا الخير.. وأكد كلامه بهزة خفيفة من رأسه.

كنت تحدث نفسك قائلا:

ـ عجبًا لهذا الرجل الذي لا يخشى الموت، الكل يهاب الموت ويرى في هذا الإعصار قوى الشر والهدم والفناء بينما يجده التاميلي لونًا

من ألوان العزاء والسلام، إنه الاستثناء الوحيد في قلب هذا الطوفان، وسكونه ما هو إلا صدى لطمأنينته.

كنت تصغي إليه بعمق، كلامه يشعرك براحة كبيرة، لديك الاهتمامات الفلسفية نفسها.. إنك تؤمن أن الطبيعة ليست خيَّرا مطلقًا ولا شرًّا محضًا، كما أنك لا تخاف الموت في حد ذاته، ولكن خوفك من الموت قبل أن تؤدي المهمة الموكلة إليك، ويضيع حلم وصول الجوهرة إلى سنغافورة، أمامك أمانة جسيمة، وعليك أن تبذل فوق طاقتك لتصل بأمان.

هذا الرجل الذي يضج بالصمت، يتحدث عن خفايا الأمور، ولا ينطق إلا بعبارات الأولياء، ألقى عليك درسًا في كرامات الصوفيين، يقول:

ـ إن الصوفية بتقاليدها الروحية كان لها دور في انتشار الإسلام بجنوب الهند منذ القرن الرابع عشر، لقد وجد أجدادنا في المعتقدات الصوفية وممارساتها ما يوازيها في الفلسفة الهندية، خاصة فيما يتعلق بنبذ العنف والتوحيد... فأصبحوا من المريدين المخلصين... وكسبوا احترام الطوائف الأخرى الوثنية خاصة الفقراء والمضطهدين.

حياة هذا الرجل غامضة، انتقل من بلد إلى آخر كسفينة بلا شراع أو ملاح تحاصره عاصفة هوجاء... أبصرتَ في عينيه شيئًا أعمق مما يبدو في ظاهر عباراته، إنها شواطئ الاطمئنان التي تمنح المعاناة لونًا مختلفًا... لقد بدأت روح هذا الرجل تتجلى أمامك صافية نقية من غير عناء...

تريد أن تغرق في هذا الجو الروحاني، وفي هذه اللحظة بالذات...

ترنو إلى السماء في اتساعها وغضبها ورهبتها... وتصغي إلى صخب هدير الموج، طوى ساجد إحدى ساقيه تحته ورفع ساقه الأخرى فوق ركبته وثناها... وألقى ذراعه على ركبته وجذبها نحو صدره... وتابع حديثه في يقين صوفي:

هذه الأنواء يا صالح ما هي إلا فضاء لتأملات شاسعة للحياة وللموت... أن الحياة في الحقيقة موت صاخب والموت حياة باذخة... جميل أن تتحرر من ذاتك وتحلق بروحك بما وراء هذا النظام الكوني وأسراره.... الخوف هو السبيل المفضي للبعد عن الله، لا تترك نفسك فريسة له... كما لا ينبغي علينا الانغلاق على الذات... وينبغي أن تكون علاقتنا بالله علاقة حب... فكل حركة تصدر منا تنادي الله دون وعي منا.

أمر خارق للعادة ويفوق حد التوقع... أن يقوم هذا الرجل بدور الفيلسوف الصوفي في سفينة شراعية، ويقدم المزيد من الوعظ، هذا ما كان يدور في أعماقك.

أُصِبتَ بعدوى الهدوء فسرتَ سكينة عابرة في روحك، المكان ضيق والحركة محدودة، تندفع كالسهم لتحقيق هدفك، تحاولُ جاهدًا أن توجه السفينة وتحافظ على توازنها... برغم أن العاصفة تزداد ضراوة وعنفًا.. كفاح مُضنٍ من أجل البقاء، ثمة أمل لم يخبُ في نفسك، لعل العاصفة تنتهي فجأة كما بدأت... تبقى للحياة شهوة متجددة برغم محاصرة الموت واستحالة الحياة بالنسبة لكم... البحارة يعانون من الظلمة والبرد والبلل، ويلفون أنفسهم بأرواب النايلون اتقاء للمطر، عليك مواصلة النضال وعينك على المرفأ البعيد... تقوي عزيمتك وتخاطب نفسك قائلا:

ـ الصبر الصبر يا صالح... أرواح مَن بالجوهرة معلقة بك، وأمانة في رقبتك..!

ـ لقد وجدتَ في الإعصار شيئًا من العزاء بل مصحة علاج قد تحررك من ذاتك الحالمة، وتنتشلك قليلا من ظلمات اليأس التي تنخر في عظامك، كنت تردد في قرارة نفسك:

لا يمكن أن يكون طبيبي عدوي عليَّ أن أنظر للإعصار بعين صديقي الصوفي ويصبح منبع عقيدتي وإيماني.. فالله يرسل لنا الريح ليغسل أخطاءنا ويكفر عن ذنوبنا.. علينا ألا نستسلم لليأس نحتاج فقط إلى بعض الوقت لنجتاز المحنة...

العواصف البرقية تضيء السماء من وقت لآخر، الأمر الذي مكن أفراد الطاقم من رؤية ما حولهم وإن كان في فترات قصيرة...

اليوم الخامس والعاصفة ما تزال قوية، لكنها ليست مخيفة كالأيام السابقة... لقد خفتت حدة الرياح لم يعد لها ذلك الدوي المرعب... وتوقف قصف الرعود لكن الأمطار ما تزال منهمرة .

(3)

السماء بدأت تنكشف والغيوم أخذت تتوارى شيئًا فشيئًا... هدأت العاصفة أو ربما أنتم الذين ابتعدتم عنها... لا ترون إلا الزبد الذي يعلو نهايات الأمواج... لقد نجحتم في إبعاد السفينة عن مسار الإعصار..!

بين كاف ونون أصبحتم بعيدًا عن مكمن الخطر... لا تكاد تستوعب أنكم نجوتم.. وأنكم ما تزالون أحياء!!

جوهرة مسقط التي قهرت بعنادها جنون الأنواء تمخر الآن عباب البحر...

تعودت من الله تفريج الكرب مهما اشتدت.. وأيقنت أن عناية خاصة من الله تتبعك.. تجدد الأمل في دواخلكم.. وسرت الحياة في أجسادكم بعد خمس ليال مُرَّة تجرعتم فيها امتدادات العذاب.. البحارة يلتفون حولك التفاف السوار بالمعصم، تتعالى الصيحات مرددة:

ـ الله وأكبر ..الله وأكبر...

البحارة يبادلونك التهاني ويُقبِّلون بعضهم بعضًا..! يا لسطوة البحر..

ويا لقصة الحلم المخضب بالملح والمغلف بزبد البحر..! لقد نقش هذا الإعصار في روح كل منكم وشمًا..!

وكتبت لكم حياة جديدة، إحساس غريب مبهم مفعم بالسعادة يلمع في العيون... أيقنتم أن الإنسان إذا كان يمتلك هدفًا... لن يهلك مهما أحاطت به الأهوال والشدائد...الإعصار كان أصعب مراحل الرحلة وأشدها، لقد أثبتم أنكم قادرون على اقتحام العقبات، كما أظهرتم تفانيكم في الحفاظ على الجوهرة بجلدكم وحنكتكم... لن تنسوا هذه التجربة ستجعل ذاكرتكم أكثر ثراء ونفوسكم أعظم بسالة!!

الأنواء المناخية التي عصفت بكم حجبت الجوهرة عن أجهزة المراقبة في سلطنة عمان وسنغافورة طوال فترة الإعصار... خمسة أيام وأخباركم منقطعة عن متابعيكم في كل مكان... كانت الثريا وسيلة الاتصال بكم، وهو جهاز لاسلكي موثوق على الصارية الثانية للسفينة ويعمل بحركة الشراع وسرعة السفينة... متصل بشبكة الإنترنت عبر الأقمار الصناعية.. عملية المراقبة للسفينة وتتبع خط سيركم تتم بواسطة الأقمار الصناعية بشكل دائم... ولقد تسبب الإعصار في فقدان التواصل معكم... طوال الخمسة أيام المنصرمة... كنتم في عداد المفقودين.. خاصة أن خبر الإعصار قد تناقلته وسائل الإعلام المختلفة .. حيث إنه دمر ولاية (اندرابراديش الهندية)، بريح تزيد سرعتها عن مئة كيلومتر في الساعة، ولقد ألحقت الأمطار القوية التي سبقت الإعصار أضرارًا كبيرة بالمنازل والممتلكات، كما لقي خمسة عشر شخصًا حتفهم، وخمسون صيادًا في عداد المفقودين.. وشردت مئات الأسر.. ولقد أطلق على

الإعصار اسم (ليلى) إنه أسوأ إعصار عرفه خليج البنغال، يقال إنه ذات الإعصار أو الفيضان الذي أغرق الأرض في عهد نوح (عليه السلام) ومن المتوقع أن يعود إلى خليج البنغال ثانية..

الحكومتان العمانية والسنغافورية تدركان أن الإعصار يشكل أعظم كابوس لسفينة شراعية..!

بدأت مظاهر الحياة تدب في العيون المنهكة .. لقد انجلى عن النفس ارتياعها... وهأنتم ترفلون بثوب الحياة... فرحة النجاة أورثتكم طاقة عجيبة وكأن شيئًا لم يكن... هبَّ الجميع يحتضنون بعضهم بعضًا، ما فعلتموه كان عملا بطوليًا، ومددت يدك إلى يد كل واحد من البحارة مصافحًا إياهم بل عانق كل منكم الآخر طويلا...

ردد يحيى الفراجي:

ـ لقد حفظنا الله بفضل دعاء الطفلة في سيريلانكا.

ـ الحمد لله..الحمد لله..

صخب البحارة يعلو، ضحكاتهم وتعليقاتهم تعود من جديد.. كما عادت الابتسامة إلى ثغر رُبرت ومايكل وجيف ما زالوا متشابكي الأيدي.. وطفق خميس وآدم وأحمد وسعيد ويحيى وحسين يرددون الأهازيج احتفاء بالنجاة:

سـي يا سـي دايم الله

البحر أسـود الدايم الله

تعالت حناجرهم بالأغنية وأهاجت الطبلة الأجانب فقام بعضهم يدور على نفسه راقصًا، يرددون الأغنية خلفهم كالكورال وآخرون يحركون أيديهم وهم جالسون طربًا..

كلمات(سي يا سي) من أصل إفريقي، يرددها الإفريقيون في صلواتهم... ووصلت إلى التراث العماني عبر تاريخ عمان الطويل في الملاحة البحرية في سواحل شرق أفريقيا.. الجوهرة تتهادى على وقع تغاريد أصواتهم الشجية...

يهمس آدم في أذنك:

ـ أيها القبطان، أريد حورية بحر تراقصني وتقاسمني فرحتي... !!!

تبتسم وتنقل رغبة آدم إلى مايكل الذي كان يقف بجانبك .. أصداء ضحكاتكم تتردد في المحيط...

سرب من الطيور البيضاء العملاقة، تحلق حولكم... تصرخ بنزق تمزق سكون المكان... أصواتها الشجية تبعث أنغامًا مختلفة... يختلط بعضها ببعض فيخرج منها لحن واحد عذب جميلٌ يسافر بالروح والنفس بعيدًا... أخبرتَ البحارة بأن الطيور علامة قربكم من اليابسة..!

شعرتَ بالفخر وأنت تنظر إلى زملائك كنت تردد في داخلك بزهو :

ـ طوبى للأرواح التي نذرت نفسها فداء للجوهرة..!

وفي الوقت نفسه لاحظت وأنت تتأملهم أنهم هزلوا جدًا خلال هذه الفترة بل كل أفراد الطاقم قد نزلت أوزانهم بشكل ملفت وأنت من بينهم

تجد ملابسك فضفاضة جدًا وبدنك واهٍ جدًا.. أجساد واهنة لكن لها إرادة تفل الحديد.. هذا الإعصار أعطى رحلتكم نكهة المغامرة، وكان اختبارًا حقيقيًّا لمدى تماسككم وجلدكم وصبركم.. تجاوزتم حافة الخطر وأثبتم أن طاقة البشر في الاحتمال لا حدود لها.. وأن الخوف بمقدار ما يكون مثبطا في البداية يكن دافعًا ومحفزًا وقت الأزمات، كما يعطي الحياة مفهوما أعمق.

تلوح لكم جزيرة من بعيد... شعرت بالارتياح العميق الذي حملك على التفكير بشكل أكبر في الحياة... البحارة أحوج ما يكون إلى أرض يابسة يأخذون فيها قسطًا من الراحة ويجرون اتصالاتهم ..وتطهون الطعام.

تحتاجون إلى وجبة ساخنة ترمُّ عظامكم... فثمة جوع قاتل يعوي في داخلكم... تحلمون بحمام دافيء، ولحظات وسن لا شيء ألذ من نومة هانئة ولو ساعة بعد هذه النكبة... استيقظت داخلكم الآلام وتفاقمت عليكم الأوجاع، النوم هو الراحة الاضطرارية العظمى للجسم الحي.. ولكن هيهات، النوم أشبه بالمستحيل في هذه العزلة الموحشة... ولكن عزلة الموت جلية بالتأمل...!حسب رأي ساجد، الطبيعة ما تزال تتلاعب بكم لقد أخذتكم الرياح بعيدًا عن الجزيرة.

الدرس السابع

انعدام الهواء

(1)

رائحة كريهة تنبعث من مكان ما في السفينة أثارت استغرابكم، فقمتم بعملية تفتيش مكثفة داخل السفينة بحثًا عن مكمن التلف ومصدر العفونة، وفي الوقت نفسه تستكشفون الأمور التي تحتاج إلى صيانة وإصلاح، الجميع يتساءل:

ـ ما مصدر هذه الرائحة؟! وما سبب هذا التعفن؟!.

ـ أيكون خشب السفينة ..؟!.

أشار عليكَ خميس الحمداني بضرورة تنظيف السفينة من المقدمة إلى المؤخرة.. فقمتَ بتقسيم أفراد الطاقم إلى مجموعات، مجموعة تقوم بغسل السفينة، ومجموعة تعيد ترتيب الأشياء في أماكنها وتتفقد التالف منها، بينما مضت مجموعة الفنيين تفتش عن مواطن العطب في السفينة وتقوم بإصلاحه... ساعات طويلة انقضت والبحارة في عمل متواصل... عفونة مقرفة جدًا، ورائحة تثير الغثيان.. حشرات غريبة تتكاثر... العفن يُولد حشرات زاحفة وأخرى طائرة أشبه بالفراشات...

رميتم الأطعمة التي معكم جميعها إلى عرض البحر، الصالح منها والفاسد، ولكنَّ الرائحة ظلت مستمرة..

وفي الصباح لاحظ أليساندرو أن السوار الذي يحيط بمعصمه قد تحول لونه إلى الأسود القاتم وكأنه محروق بالنار؛ وهو من الفضة الخالصة...

وفي فزع صاح بكم منبهًا:

يوجد تسرب غازات في السفينة.. قد يقضي علينا في ساعات..

خلع سواره ورفعه إلى الأعلى وتابع حديثه:

الدليل هذا..!

تناول إريك السوار في فزع ..وتفحصه جيدًا ثم قال:

- أجل ثمة تسرب لغاز الهيدروجين في السفينة، وهذا مصدر الرائحة الكريهة ..

كنتم تدركون جيدًا أن هذه الغازات لها تأثير سام على النسيج الرئوي للإنسان، وربما يرجع إليها السبب في شعور الكثير منكم بالصداع وبعض التقلصات المعوية.. وقتها أرجعتم الأمر للإرهاق...

قلبتَ الأمر في رأسكَ جيدًا، وأرجعته إلى وجود تأكسد ما بسبب وجود بعض الأطعمة المجففة مثل، المالح وتأكسده ببعض المواد التي تحملونها..!!

الخوف من الاختناق استبدَّ بالجميع... ثمة شيء خطر... هناك

انبعاث غاز في السفينة... تبادر إلى ذهن بعضكم أن السبب قد يكون في كمية الرصاص التي على ظهر الجوهرة؛ لديكم ما بين خمسمئة إلى ألف قالب من الرصاص رباعي الشكل، يزن كل قالب منها عشرة كيلو جرامات؛ برغم أنكم قد أخذتم احتياطاتكم وقمتم بتغليف كل قالب بالبلاستيك الأسود حتى لا يدخل إليه الأكسجين، ولقد جلبتم هذه الكميات الكبيرة من الرصاص لتحافظ على توازن السفينة، وتكون مصدر ثقل لها في الدوامات المائية الكثيفة.. ولقد كان لها دور كبير في حفظ توازن السفينة في أثناء الإعصار لولاها لكنتم الآن لقمة سائغة في بطون حيتان البحر...

موضوع التسرب كان مثار استغراب البحارة ودهشتهم، الكل يتساءل كيف وصل الأكسجين إلى الرصاص المحكم الإغلاق؟! لقد تم تغليفه وطيه أكثر من مرة بالبلاستيك الأسود... وقمتم بردمه بأحمال الحجارة الصغيرة، فلا يظهر منه موضع إبرة، لقد قمتم بهذا الإجراء تحسبًا من حدوث تسرب غاز الهيدروجين، كيف تسلل إليه الهواء ؟!

الأجواء المشمسة وعملية غسل السفينة، وإعادة طي الرصاص بإحكام أكبر، أسهمت في تخفيف حدة الروائح المنبعثة شيئًا فشيئًا... ولكن لدغات الحشرات الصغيرة جدًا سببت لكم الكثير من الإزعاج وأبقتكم مسهدين حتى في فترات راحتكم.

في الأفق غيوم متقطعة تتكاثف أحيانًا فتنسكب مزنها الهتون... ولكنها سرعان ما تنقشع ويعود الصفاء إلى السماء... ويرجع للبحر سحره... كان القمر يسامركم يبتسم لكم منظره فريد وساحر قلَّ أن يضارعه منظر آخر.. ينعكس على البحر اللازوردي.

كانت السفينة تسير بهدوء مع النسمات الخفيفة، ولقد استغل أفراد الطاقم هدوء البحر في تبديل الشراع الرئيسي المصنوع من القماش بشراع آخر مصنوع من سعف النخيل، فضلا عن تهيئة السفينة استعدادًا لوصولكم إلى بينانج الذي بات وشيكًا جدًا.

لفت انتباهكم ظهر اليوم ثلاثة قوارب صيد صغيرة مزدانة بالألوان، في كل قارب ستة أفراد كانوا يتفحصونكم بواسطة العدسات المقربة، استبشرتم خيرًا، حسبتموهم صيادين وأضمرتم الرغبة في شراء كمية من الأسماك من عندهم؛ حاولتم التواصل معهم وتحيتهم بلغات مختلفة، إلا أنهم لم يقتربوا منكم، اعتقدوا أنكم قراصنة.. ذقونكم الطويلة وهيئتكم توحي بذلك فملئوا منكم رعبًا وولوا فارين؛ أداروا زوارقهم التي انطلقت تشق عباب البحر مخلفة وراءها أمواجًا من المياه المتصاعدة، تساءلتم باستغراب:

ـ كيف يغامر هؤلاء الصيادون بالابتعاد كل هذه المسافة عن الشاطئ لتأمين كمية الأسماك التي يصطادونها يوميًّا وفي منطقة معبأة بالقراصنة..؟!

لم تكونوا محظوظين في صيد الأسماك طوال الرحلة، تعيدون الصنارة مرة تلو الأخرى وفي كل مرة تجددون الطعم... ما عاد الطعم ينطلي على الأسماك لم تعلق بصنارتكم ولا سمكة.

لم تروا إلا سمكتين من السمك الطيار قذفتهما العاصفة في أثناء الإعصار على سطح الجوهرة، كانتا ميتتين وهذا يعطي مؤشرًا خطيرًا أن الأسماك بدأت تنضب مع ظهور الصيد الصناعي الجائر بواسطة سفن

الصيد العملاقة، فانهار مخزون العديد من الأسماك.. واختلت الموارد البشرية.

كنتم ترددون:

لا شك أن البحارة العرب، والفرس، والهنود الذين أبحروا عبر هذا الطريق في القرن التاسع وجدوا محيطًا زاخرًا بكميات وفيرة من عناصر الحياة البحرية.

كنت تشعر بحرقة شديدة في عينيك، لفت انتباهك إلى احمرارهما العديد من البحارة، تحس بأن شيئًا غريبًا في عينيك.. الدموع تنهمر بغزارة والرؤية شبه معتمة بالنسبة لك، استلم مكانك خميس الحمداني كل ما تحتاجه الراحة وبيئة صحية آمنة، ولكن أنى لك بها في هذه الأجواء.

يبدو أن البكتريا المتكاثرة في السفينة قد أثرت على عينيك، كنت تتألم بشدة ولا تقوى على فتحهما...

ظللت تعقمهما من ماء البحر؛ باستخدام كمية بسيطة من المياه في كوب صغير، تضع فتحة الكوب على عينيك تغمض تفتح مرتين وترفع رأسك إلى الوراء، كنت في كل مرة تكرر عملية التعقيم ثلاثًا، ولكن الألم ما يزال مستمرًا، لا تستطيع أن تفتح عينيك، لا تكاد ترى سوى بصيص خافت من ضوء معتم.. سفينتكم تسير بهدوء، وزوابع هوائية مختلفة تهب عليكم وبرغم أنك لا تستطيع أن تفتح عينيك إلا أنك استطعت أن تحدد موقع الجوهرة من هبوب الريح، كان إريك برفقتك لا يتركك في

فترة استراحته، هذا الرجل ملهم جيد، وهذا الإلهام يساعده على توضيح المواقف الغامضة والسيطرة عليها.

كما يُخيَّلُ إليك أن ساجد يملك من الفراسة ما يمكنه من كشف ما يدور في خفايا النفس من أسرار.. كان يهرف طوال الليل عن قصة الرجل الذي يزوره أوقات الخطر، يقول:

ـ البارحة بين غفوة ويقظة جاءني رجل بملابس بيضاء يسعى في البحر.. أسرَّني بكلمات بعثت في نفسي الطمأنينة وكشفت لي بعض الحجب.. ثم سلم وانصرف إنها ليست المرة الأولى التي يأتيني فيها هذا الرجل والذي استبشر به خيرًا.

لديه إحساس عميق أنه لن يصاب بسوء.. فاسم الله المخطوط على بطن كفه قادر على دفع الأذى عنه، وكثيرًا ما كان يتباهى أن هذا الوشم الرباني الذي يحمله في باطن يده لا يمكن أن يتجاهله...علاقة هذا الرجل بالله هي مزيج من الحب الصوفي، كثيرًا ما كان يهز رأسه عجبًا أو سخرية.. يحلف بالله والأنبياء والأولياء الصالحين.. أن العواصف فيها القوة والرحمة، والله يرسل لنا الريح ليكفر عن ذنوبنا ويغسل أخطاءنا... حتى زبد البحر الذي يثير الفزع في نفوس السواد الأعظم من البشر ما هو إلا شعلة بياض تحمل مغزىً روحيًّا عميقًا..

أمام روح هذا الرجل تنحني باحترام شديد، في هذه اللحظة بالذات تشعر أنك بحاجة إلى التصوف وإلى التعلق بولي من أولياء الله الصالحين.. الذات المترقبة لعطف الله تتجلى بتناقضاتها في داخلك...

(2)

ميناء جورج تاون بجزيرة بينانج الماليزية القريب البعيد بينكم وبينه مسيرة ساعات فقط، وصولكم رهن على سرعة الرياح.. ولكنَّ الرياح والتيارات المعاكسة حالت دون وصولكم، لقد كانت تسحبكم إلى الوراء.. ساعة بأكملها وأنتم ترجعون القهقرى...

في هذا التوقيت تمكنتم من التقاط مكالمة السيد بدر الذي حمد الله كثيرًا على سلامتكم ونقل اليكم مشاعر الخوف والقلق التي كانت تعتري متابعيكم ، يقول:

- كانت قلوبنا ودعواتنا تبحر معكم في كل ميل من رحلتكم .

تتدين لهذا الرجل بالكثير مافتئ يوقد في داخلك لهيب الهمه والحماسه.

لقد سكنت الرياح وهدأت، ولم يبق في الجو أثر لنسمة هواء، درجة الحرارة ترتفع يومًا بعد آخر.. السفينة جامدة مكانها، أنوار الجزيرة تتلألأ من بعيد ولكنكم لا تستطيعون الوصول إليها، لا يوجد هواء يحملكم إليها، انعدمت نسمات الهواء.. عدا تيار بسيط لا يقوى على تحريك

السفينة قيد شعرة.. وأنتم مرهقون لا سبيل لكم للتجديف.. مضطرون إلى رمي المخطاف في البحر وإيقاف السفينة..

الوقت يمضي ثقيلا كثقل السفينة التي تقلكم، والرتابة تنشر أجنحتها وتكسو أرواحكم بالسأم.. أصابكم الإحباط لانعدام الرياح، وخابت آمالكم في التقدم للأمام، الشمس الحارقة تلفح وجوهكم حتى أصبحت داكنة، والعرق يتفصد من جباهكم من شدة الحرارة ..

ـ وقوف المرء بلا حول ولا قوة أمام الأحوال الجوية هو أكبر تحدٍ لسفينة شراعية تعود إلى القرن التاسع الميلادي.

هذا ما كان يردده البحارة فيما بينهم، لكن ثمة مرحًا كان في انتظاركم أخرجكم من مزاجكم الكئيب.. وأدخل المتعة والسرور إلى قلوبكم، اللحظات الممتعة لا تنسى على متن الجوهرة، ففي الظهيرة اقتربت منكم مجموعة من الدلافين قدمت لكم عروضًا بهلوانية رائعة استمتعتم بها، كانت تقفز على بعد أمتار تتقلب في الهواء وتعود إلى الماء، لم يفت العرض مايكل الذي كان يقتنص الصورة تلو الأخرى يوثق الحدث ..

لم تقطع الجوهرة إلا أربعة عشر ميلا خلال ثمانية وعشرين ساعة إنها أقل مسافة تقطعها الجوهرة منذ مغادرتها مسقط.. بينكم وبين مرفأ بينانج خمسين ميلا فقط... تستطيعون رؤية أضواء عشرات القوارب الصغيرة التي تزين الأفق.. تواصلون السير ببطء وحذر..

حاولتم البحث عن أي مأوى يحميكم من أشعة الشمس الملتهبة... بيد أن الأشرعة المرخية وفرت شيئًا من الظل إلى ما بعد الظهر، ومر

الليل وحلَّ نهار اليوم التالي وأنتم على هذه الحال السحب تتكاثر جهة الغرب، هبت نسمات خفيفة من الهواء ضاعفت من سرعة الجوهرة عقدتين... ضباب مجنون يحجب الرؤية عنكم، يتعمد تضليلكم ومعاكسة خطواتكم، التنبؤات الجوية تشير إلى وقوع عاصفة مطيرة .. ارتدى أفراد الطاقم الملابس الخاصة بالمطر... لقد هطلت أمطار خفيفة أسهمت في تعديل أمزجتكم قليلا، تفاءلتم خيرًا لعل المطر يجلب معه هواء، ولكن العاصفة المطيرة لم تؤدِ إلى حدوث تحسن في سرعة الرياح، كلما تقدمتم قليلا يرجعكم تيار معاكس..

في هذه الرحلة المليئة بالاحتمالات والتحديات، تتدفق الأحاديث عذبة بما فيها من طرافة وعفوية ودهشة.. على ضوء القمر وفي حلقات السمر تجتمعون في انسجام لا متناهٍ... آدم البلوشي حكّاء بامتياز، تعودتم على أسلوبه في القصِّ، يُقدم في حكاياته بعض الأحداث، ويُؤخر شيئًا من التفاصيل، وببراعة وحبكة مدروسة يبدأ يكشف عنها شيئًا فشيئًا، كما لفت انتباهك إريك ورُبرت اللذان يحفظان عن ظهر قلب العديد من قصص السندباد في كتاب ألف ليلة وليلة.. تستمع إليهما وهما يسردان الكثير من العادات والتقاليد، وغرائب الأسفار وعجائبه.. وقلق الإنسان في مواجهة البحر الشاسع.. والخوف من المجهول وما يكابده البحارة من أهوال.. أساطير وحكايات لا تخلو من غايات.. أمثال هذه القصص تغرس في نفوسكم فضيلة الصبر على المكاره وتقوي إيمانكم بالله..وتفاصيل الحكايات بمثابة أوشاج تقرب البحارة بعضهم إلى بعض...

في هذه الديمقراطية الصاخبة قرأت الكثير من طبائع كل فرد من أفراد طاقمك.. كما لاحظت أن البعد عن الأهل والانزواء في البحر جعل البحارة هشين، العزلة نهشت في عظامكم ما يكفي، لكن الشدائد صنعت من الشباب حديثي الخبرة بحارة حقيقين.

لقد أيقنت أن الإنسان كالطبيعة تتجاذبه الكثير من النوازع وتتقاذفه الأقدار، يتعثر هنا وقد ينهض هناك.

ريح طيبة تسوق المركب سوقًا هادئًا بل رفيقًا استسلم غالبية الركاب إلى نومة عميقة ..ما عدا إريك كان مستلقيًا على ظهره.. متمددًا على سطح السفينة، أخرج رواية " موبي ديك" من تحت وسادته، وبدأ يكمل قراءة فصولها.. إنها رائعة هيرمان مافيل رواية بحرية موسوعية ومعجمية في الوقت نفسه، لم تترك اسمًا أو مصطلحًا بحريًا لم تأتِ به.. تدور أحداثها حول صراع الإنسان مع قوى الطبيعة والمتمثلة بالحوت الأبيض المدعو موبي ديك... ساعات انقضت... وإريك غارق في القراءة، نسي نفسه حتى أيقظته الصفحة الأخيرة من الرواية، وبعدها سافر في أحلامه البعيدة... كنت تراقبه بعينيك الحادتين، محدثًا نفسك:

- للأحلام أصداف ودرر، وكلنا حالمون في لحظات اليقظة ولكن كل بطريقته... أحرار في تخيلاتنا، والألم يكسبنا حصانة ذاتية ..

- صمت المكان يبعث الهدوء في الروح، شعور مختلف ينتابك حينما تملأ رئتيك من هواء البحر.. إريك صديق رائع لطالما ردد على مسامعك:

- الماء فيه رئة يا صالح، وماء البحر يبكي ويختنق في النشيج.. هكذا

يقول لوركا.

خطا بجلبة على ظهر السفينة، وأسند مرفقيه على جدار السفينة ثم أطلَّ برأسه، وهام بعينيه على صفحة الماء، أطلق تنهيداته العميقة الحارة، وطفق يغني:

- البحر من بعيد يبتسم... أسنانه زبد... والشفاه من سماء... وأنت يا فتاة كَدِرة المزاج...

لوركا الشاعر القتيل الذي تحوّل إلى رمز وضحية لهمجية قوى الشر في العالم وعنفها الدموي في دحر الثورات والقضاء على رموزها، وهذا هو الدكتور إريك خبير الآثار له نظرته الفلسفية وتطلعاته المختلفة.. وعشقه لشعر لوركا ماهو إلا اندماج وتماه في الفكر والعقيدة...

كم استرقت من الوقت الهارب لحظاتٍ أنت وإريك صنعتما منها صداقة رسّختها عمق أفكاره، ووهَّجتها نظرته للحياة والبحر... تتقاذفكما المرافئ وأنتما من حلم إلى آخر.. كان كتابا أحمد بن ماجد وسليمان المهري وسيلتين جبارتين للتقريب بينكما.

ارتفاع درجة الحرارة واشتداد الرطوبة.. أشعل كثيرًا من الخواطر والأفكار في داخلك والتي كنت تستسلم لها تارة وتهرب من شبحها تارة أخرى؛ العيش في مكان مفتوح بعيد كل البعد عن أبسط أمور الحياة... وألا تمارس حياتك بخصوصية حتى في الاستحمام.. أن تنام بالجملة، وسريرك عبارة عن خشبة ممتدة على سطح البحر تقلبها الأمواج والرياح، وأن تقضيَّ حاجتك على مرأى الجميع.. ناهيك عن الإحراج الذي يجده المصابون بالإمساك منكم..!

عملية إلقاء الأوامر لشخصيات تعودت أن تكون قيادية، ولها من الخبرة باع طويلة غير بسيطة... وأن الخضوع والإذعان والقبول بالأعمال اليسيرة كتنظيف السفينة أو الطبخ وتلقي الأوامر... بنبرات ما تعودها البعض ليست هينة أيضًا... ولكنها الجوهرة التي أسلمتم أنفسكم إليها، كم ضحكتم واستمتعتم على متنها، وكم لفكم الخوف والقلق... لقد وقعتم جميعًا في غرام هذه السفينة، أصبحت لكم وطنًا وملاذًا جميلا... وبعين الابن البار كنتم ترعونها وتذودون عنها... راضين مستبشرين بهذه العزلة الكونية، إنها عزلتكم الاختيارية التي أتاحت لكل فرد منكم مساحات واسعة من التأمل والخلو بالذات... وأينما حللتم الجميع يرى أنكم النخبة جمعتم الخبرة والموهبة والخيال الخصب والصبر... والأجمل أن الود والتفاهم والسلوك السوي والأخلاق الراقية هي السائدة في الجوهرة مما كان يخفف من وطء حدة المعاناة.

الدرسُ الثامن

مرفأ جورج تاون
بجزيرة بينانج الماليزية

(1)

آاااه يا صالح غصة ملتصقة بحلقي تخنقني، لا أشعر بالأمان ولا الحب معك ولا بذرة اهتمام منك، شهور مضت وأنت لا تسأل، أخبارك أعرفها من والديك ومن الجرائد، محادثتك لي لا تتعدى الثواني والسؤال نفسه الذي تطرحه علي منذ أن غادرتنا:

ـ كيف الأولاد؟.

وأعيد عليك الإجابة نفسها، ولكن لهفتي تختلف في كل مرة، فأشواقي لك كانت بين مد وجزر ..

ـ بخير والحمدلله، طمنا عليك، عساك بخير.

تجيبني ببرود:

ـ بخير.

يصمت كلانا لحظات، تتكسر الحروف بين شفتَّي فلا أقوى على نطق كلمة أخرى، ثمة حواجز استطالت بيننا... أُحمِّلكَ مسؤوليتها، فأصبح كل واحد منا غريبًا أمام الآخر، ألتمسُ لك الأعذار، أُغمض عينيَّ، وأشحذُ كل حواسي للإنصات إليك ولكني أفيق على عبارتك التي تعلن الرحيل:

- في أمان الله، أبلغي سلامي للأولاد.

تلفظها ببرودة تلفح جراحي المفتوحة فيزداد عمق الألم.

وتغلق الخط، ما عاد لديك شئ تقوله وسط حالة الحزن التي تتلبسك، لقد ودعتني منذ أن دخلت حيز بونة حياتك.. وهذا هو اللقب الذي أطلقته عليها منذ أن عرفت قصتك معها.

لستُ أدري أأعتب عليك أم على أمينة التي أسهمت ولو بشكل غير مباشر في تضخيم صورتها في نظرك، كانت تتحدث عنها وعن الجمعيات الخيرية التي تنضوي كل واحدة منهما تحت لوائها .. تعلقت بوقفاتها الإنسانية قبل أن تراها وأكبرت صنيعها.. وتعاطفت معها أكثر حينما علمت أنها يتيمة الأبوين وتعيش مع أخيها الأكبر... إنك نرجسيٌّ في الحب، وما ظننتك جبارًا إلا حينما عشقتَ ... عندما تتمادى في كبريائك تصبح متعجرفًا.. لقد جمعت سنوات عمري التي عشتها معك بحلوها ومرها، ورميتها عرض الحائط، لم تلتفت إليَّ ولو لحظة تتعرف حجم الألم الذي أصابني، لقد شغفتك حبًا، أحسدها من أعماق قلبي بل أمقتها..؟! فهي خصمي احتلت جزءًا كبيرًا من قلبك فأصبحتْ لك ذاكرة هامسة.. !

عندما ينهشني اليأس وتملأني الندوب أُحمِلُّ أمينة مسؤولية ما حدث، وأنها السبب في قلب حياتي رأسًا على عقب.

بعد كل مكالمة أستشعر فيها جمود مشاعرك نحوي، أظل أردد:

ـ الأولاد بخير والحمد لله، لا تقلق عليهم ما داموا معي... ولكنني

لستُ بخير يا صالح ألا تشعر بألمي ورنة الشجن المنبعثة من صوتي...؟ معاول الهدم والتحطيم التي تلجأ إليها كثيرة...! لقد كسرني تجاهلك وتهميشك لي...! أتعلم أن شوقي لك يقتلني؟!

مؤلم جدًا الشعور بالخذلان وأن تجد المرأة نفسها آخر اهتمامات زوجها.. قليلا من الحب والاهتمام هذا كل ما أريد ..أعلم أنها تزوجت وستختفي من حياتك لكنني ما أزال خائفة من شيء ما لا أعرف كنهه.. في عينيَّ دموع لم تجف بعد... وفي خاطري آهات محبوسة... لا سلطة لي على التحكم بمشاعري... صورة هذه المرأة تطاردني في الحلم واليقظة... وأريد أن أضع حدًا لهذا الهوس؟!

أذهب إلى العمل منهكة، التدريس يأكلني كما يستهلكني الحزن، كلما حاولتُ اختراق جدران قلبك لا أجد منك سوى الصدِّ... فأتشبث بالصمت...وأعود إلى فراشي الذي يفوح بشذى عطرك الذي أرشه كل ليلة على وسادتك.. أتسلى بترتيب ملابسك والعناية بمقتنياتك الخاصة، تعلم أنني أحب التغيير وأكره الرتابة، حيث إنني لا أُبقي على قطعة أثاث في مكانها شهر واحد، وقد يكون هذا السبب في شعوري بآلام شديدة أسفل الظهر، وتحرك فقرتين من عمودي الفقري من مكانهما، يقول لي الطبيب: لا تحملي أشياء ثقيلة، ولكنني لا ألتفت إلى نصائحه.. أجتهد في تغيير الزوايا، أنثر شيئًا من التجديد؛ لأحطم أصنام الرتابة الجاثمة على روحي...

لست أدري ماذا ينتظر الرجل من زوجته حينما يغادرها ويهيم بأخرى؟!

استهلكتني المراوغة والتظاهر باللامبالاة، كنتُ أترفع من الدخول

معك في أية مناقشة حولها برغم ما أراه بأم عيني وأمامي من تجاوزات، وذلك درءًا لحدوث أية معركة أعلم أنني سأكون الخاسرة فيها، وستلصق بطباعي العديد من الصفات وستشكوني لوالدتك بأنني نكدية وأفتش عن المشاكل... الحياة تتخبط بي كما تتخبط بك الجوهرة الآن.

لست أدري لماذا اليوم بالذات شرعت ذاكرتي تسقط عليَّ لوحات مختلفة، أستعيد ذكريات انتهت صلاحيتها في داخلك، لكنني استمتع باستحضارها، وأعيد سردها على مسامع أبنائي واحدًا تلو الآخر... سألتك مرة في بداية زواجنا ونحن في نزهة بعرض البحر:

ـ صالح، لماذا يبدو لون البحر أزرق دائمًا، برغم أن المياه شفافة بطبيعتها، ولا لون لها كما تعلمنا في المدرسة؟

أجبتني:

ـ ثمة جبال وصخور زرقاء في البحر تكونت منذ ملايين السنين، وبمرور الزمن تفتت هذه الجبال وأعطت البحر لونًا أزرق.

وحينما أخبرتُ والدك بإجابتك ردَّ عليَّ بامتعاض:

ـ صالح يسخر منك ويستهزأ بك؛ زرقة ماء البحر مرتبطة بلون السماء الأزرق الذي ينعكس على وجه الماء، ألا ترين عند الغروب يصبح لون الماء أصفر مثل لون الشمس، وعند المساء يصبح لونه أسود؛ وذلك لأن السماء سوداء معتمة في الليل؟!.

(2)

لحظات الانتظار مُرَّةٌ ..الصحف والإذاعة والتلفزيون ومواقع الإنترنت تحدثت عن الإعصار، متابعيكم في عمان وسنغافورة وبقية الدول تدور فيما بينهم مناقشات واحتمالات لا حدود لها حول غرق الجوهرة، وضياع حلم الوصول.

مخاوف لها مبرراتها... الإعصار وما حدث فيه كان بمثابة صرخة إنذار، ولكن تجاوزكم المحنة أعطى الجميع ومضات أمل لتحقيق الحلم... الإعصار الذي تعرضتم له أنهك الجوهرة، لقد بهت لونها كما غاب بريقها، إنها تحتاج لعملية صيانة مكثفة... ولا بد من إعادة طلائها بطلاء يمنع عنها حشرات السفن...

شعرتم بسعادة غامرة لوصولكم البر، لا شيء يعدل منظر الابتسامة المرتسمة على وجوه أحبتكم الذين كانوا في انتظاركم بالميناء.. ممثلون من مكتب أمين عام وزارة الخارجية العمانية، والسفير العماني لدى ماليزيا، وأولئك الذين ترونهم للمرة الأولى في المرسى، مثل: وزير بينانج الأول توان ليم جوان، وعدد من المسئولين من مفوضية ميناء

بينانج، وهيئة بينانج للسياحة العالمية، والمفوض السامي السنغافوري، والسكرتير الأول والترتشيا..

البرنامج الذي أعد احتفاء بكم في بينانج كان حافلا جولات سياحية ومآدب غداء واسعة وحفلات عشاء تتخللها رقصات لفرق تقليدية ماليزية، لقد استمتع أفراد الطاقم جميعًا بكل هذه الفعاليات والوجبات الشهية، فضلا عن زيارة الأسواق والاستمتاع بالمأكولات الماليزية المشهورة التي تباع في الشوارع...

شبه جزيرة الملايو بوتقة الحضارات القديمة والحديثة، وهي أنموذج للتعايش والتأقلم بين الديانات والقوميات المختلفة برغم اختلاف أصولها وتعدد دياناتها، ولقد كانت بينانج منذ القدم استراحة للسفن الشراعية المتجهة إلى الشرق يتوقفون فيها حتى تغير الرياح الموسمية وجهتها.

الجوهرة تحتاج إلى صيانة كاملة وعملية تنظيف شاملة، والتأكد من سلامة الحبال وإحكام الأشرعة، عدا عن طلاء السفينة بمادة الشونة مجددًا، هذه المادة مزيج من دهن الماعز والجير تسخن بطريقة خاصة، دلكم على طريقة استخدامها أحد المعمرين في مدينة صور حيث كان يعمل في صناعة السفن قديمًا. ويستخدم هذا المزيج في سد الفراغات والثقوب بين الألواح.

لقد اكتشفتم أن هناك تمزقًا كبيرًا في الحبال يستحيل أن يكون سببه ملوحة الماء، كأن أسنانًا حادة مزقتها، وبعد رحلة تفتيش مكثفة في خبايا السفينة؛ تبين أنكم كنتم تحملون ضيوفًا معكم رافقوكم طوال رحلتكم، إنهم ثلاثة جرذان مختبئة في السفينة، قرضت العديد من

الحبال.. طوال الرحلة وهي تقرض وتأكل وتفرز بقاياها، دون أن يعكر صفو حياتها أحد..

لقد جلبتموها معكم من مرفأ سيريلانكا الذي كان يعج بالجرذان.. مما لا شك فيه أن الفئران لها قدرة هائلة على التكيف في البيئات المختلفة، وتتحمل الظروف المناخية والجغرافية المتباينة فهي تتواجد في المناطق القارية، والمعتدلة، والباردة، والمتجمدة..

شعر البحارة بارتياح شديد لدى اتصالهم بأسرهم في سلطنة عمان التي تعرضت لعاصفة مدارية أثرت على سواحلها.

بينانج مدينة صاخبة تجمع بين الطابعين الشرقي والغربي ويبدو ذلك في المباني التراثية التي تجاور المباني الحديثة ونمط الحياة والعادات السائدة بين أوساط السكان، ما لفت انتباه البحارة فيها وأثار شهيتهم تنوع الأطعمة ولذتها، مثل: شوربة لاكسا الحارة، ومعجنات أرز شار كواي تيوا الغنية بالتوابل الحارة، فضلا عن المأكولات البحرية..

ويعد الدوريان من أشهر فواكه بينانج وهي ثمرة تشبه البطيخ لها رائحة كريهة، ومحظور تناولها في الفنادق والمطاعم أو شحنها في المطارات، ولكن بحارة مثلكم استطاعوا تجاوز الرائحة والاستمتاع بطعم الفاكهة اللذيذة المصحوبة بتعليقات آدم ونكاته السمجة في كل جلسة، يغمز ويضحك بلا توقف... يثير المرح بين الحضور حتى أولئك غير المهيئين للضحك، لا يستطيعون أن يمرروا النكتة التي يلفظها دون ابتسام.

زيارات الطلاب من المدارس المختلفة للجوهرة والالتقاء بهم طقوس ليست جديدة عليكم في الفترات التي تقضونها في المرافيء، استمتعتم

بشكل خاص بأسئلة الطلاب الذين أخذهم الحماس لطرح كل ما يدور بمخيلتهم من أسئلة عن الجوهرة، وكيفية الإبحار بها والحياة على سطحها.

كما سعدتم بتلقي الكثير من الرسائل والبطاقات ممن شاهد السفينة في المرافئ السابقة أو على موقع الجوهرة بشبكة المعلومات الإنترنت.. من بين الرسائل التي نالت إعجابكم وقمتم على الفور بنشرها في مدونتكم رسالة ريا سينج طالبة بالصف التاسع بالمدرسة الدولية الأمريكية في سلطنة عمان والتي زارت جوهرة مسقط مع زميلاتها في مرحلة بناء السفينة على ساحل قنتب في سلطنة عمان وهذا نصها:»ليست جوهرة مسقط مجرد سفينة تبحر إلى سنغافورة، إنها رمز للسلام والصداقة بين الدول، وما يستحق الإشادة والتصفيق أن تقوم دولة بإعادة بناء بقايا أقدم سفينة في المحيط الهندي، ثم تبحر بها عبر أكبر المحيطات كي تقدمها هدية لدولة أخرى في الوقت الذي تنخرط فيه الكثير من الدول في حروب، أطلقت هاتان الدولتان مبادرة السلام».

هذا الصباح كنت بمزاج رائق، تردد أغنية (مجروح منك) لأبي بكر سالم:

الحـب مثل البحر تلعـب به الريايح
كل مالـه الا هاجـت رياحـه
يـا كم وكم من فـل فرفربـه لواح
عبريتـه غابـوا وغابـوا ملاحـه

البحارة جميعهم يؤمنون أنك بحار عظيم بعد إيمانهم بالله، فخورون بك، ويكنون كل التقدير لقبطان استطاع أن يحافظ على سلامة أرواحهم، ويبحر بالجوهرة عبر الطريق الذي خطط لها ألا وهو طريق الحرير..

التكامل في توزيع الأدوار حسب الاختصاص، ودراية القبطان بمهارة كل شخص ميزة لا يتقنها الكثير من الربابنة، فالمعرفة المتخصصة هي جوهر الإبداع، ولا يمكن أن يحل شخص مكان آخر، وبقدر التزام الإنسان بمسؤولياته يحقق قيمة لذاته...

ولما كانت الملاحة عبر المحيط الهندي تتعذر على من يجهل سرَّ الرياح الموسمية في هذا المحيط، فمن المؤكد أن العمانيين عرفوا هذا السر وتوارثه ملاحوهم جيلا بعد جيل.. وعن العرب عرف اليونان القدامى هذا السرَّ.. فالمصادر الصينية تشير إلى وجود البحارة العمانيين في ميناء كانتون الصيني خلال القرن الثامن الميلادي، ومع منتصف القرن التاسع أصبح الطريق البحري بين مسقط وموانئ الشرق الأقصى طريقًا تجاريًا معروفًا؛ حيث كانت السفن العمانية تنطلق من موانئ مسقط وصحار وقلهات وصور وصلالة عبر بحر عمان وبحر العرب وصولاً إلى الهند، ومن ثم تعبر إلى سيلان متجهة عبر خليج البنغال إلى مضيق ملقا، كما كانت تبحر بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة قبل أن تتجه شمالاً إلى فيتنام أو سنغافورة أو الصين.

(3)

شمس حنون تخاتلكم بين فترة وأخرى، وشعور بالأمان يغمرك وأنت تناجي الموج، تتهجى لغة البحر، وتحدق في الضباب الممتد.. تولدت لديك رغبة شديدة في البوح بآلامك، الوجوه والأماكن والمسافات وسيلة لاستفزاز الروح.. تتمنى أن تجد شخصًا تبثه مرارة النوى، وفجيعة البين التي لاطاقة لك باحتمال آلامها، تشكوه تبدل الأحوال.. فمهما حاولت كبت مشاعرك ومداراتها عن الآخرين تأتي لحظات الضعف والاعتراف.. لا تجد صديقًا أفضل من آدم تبثه نجواك، أكثر من مرة وبمواضع مختلفة، كان آدم يتساءل عن سر حزنك وشرودك الطويل.. لم تصرح بشيء.. كنت ترد عليه باقتضاب:

ـ صداع لا أكثر.. وتنصرف.

آدم ميزته أنه اجتماعي ومرح، ويتأقلم مع الآخرين بسرعة، أما نقطة ضعفه فهي التشتت، وعيبه هو الإصرار على بذل النصيحة للآخرين..

إنه لا يريد أن يسمع الحكاية من نهايتها، يستحثك لسرد الحكاية من

البداية، منذ اللقاء الأول والنظرة الأولى؟

يغمز بعينه وهو يسألك:

ـ من عساها تكون؟ وكيف عرفتها؟ وهل تعلم أم حمزة بالأمر؟.

عيناك معلقتان بوجهه تتفرس ردة فعله، أشياء كثيرة تجتهد في اخفائها تريد أن تبقي للعلاقة خصوصيتها وأسرارها، وعليك أن تبتعد عن التفاصيل الدقيقة، وبعد طول صمت تنهدتَ، ثم قلت:

ـ آاااه يا آدم ما يزال طعم أول فنجان قهوة شربته معها عالقًا في فمي، ليلة الغرام الأولى ما تزال ناعمة ومخملية في ذاكرتي، ولكن الشعور بالفقد مؤلم جدًا، والحياة بلا حب سماء بلا نجوم... أعترف أنني خسرتها، فتاة مثلها مزاياها أكثر من أن تحصى...

العبارة الأخيرة التي قلتها، وحدها كانت كافية ليطلق آدم عنان مخيلته، يرسم الصورة المشتهاة للمرأة..

ـ رغباتنا تحركنا ولكن إرادة الله تمنعنا...!

هذا ما كان آدم يحدث به نفسه.

تصمت لحظة.. وبنبرة مغايرة تمامًا، تابعت:

ـ أم حمزة زوجتي وأكنُّ لها كل الاحترام والتقدير، لكن منال حب العمر والحبيبة التي تمنيتها حليلة، لكأنني كنت أدخر عواطفي طوال عمري حتى التقيتها، فتدفق الحب في داخلي كالطوفان.. كنت سعيدًا بها، وكمراهق غرقت معها في سكرة الحب وعذوبته... أعد الأيام والليالي،

لأحقق هدفي وأهديها نجاحي.. كل هذا كان بالأمس يا آدم، والأمس حلم لا يعود...!!

صالح، لو كانت لك لما حرمك الله منها، واعلم أنها لو كانت من نصيبك لما أخذها أحد سواك.. حرِّر نفسك من التفكير فيها، وأسأل الله أن ينتزعها من قلبك.

وتابع بحزم:

ـ عواطفك ومشاعرك هذه وجهها لمن يستحقها زوجتك التي وهبتك نفسها، وحفظتك في حلك وترحالك، وكفتك عناء تربية أبنائك.. لديك درة ما عرفت قدرها.. إنني أعرف أم حمزة جيدًا امرأة فاضلة لا تستحق منك كل هذا النكران.

وانبرى يواسيك بالكلام المعتاد عن الأقدار والقسمة والنصيب.. وأن الزمن كفيل بمداواة لوعة الحرمان وألم الفراق..

شعرت بالضيق من جملة النصائح التي يطلقها ولا يعمل بها، آدم روحه ضائعة تائهة.. له ثلاث زوجات، ولو أخذ الرابعة ما أظن أنه سيهجع.. طال حواركما وتشعب، كلاكما يؤمن أن الرضا هو السعادة، وأنه لا توجد سعادة مطلقة... وأن الإنسان دائمًا يلهث وراء المتاعب ولو رضي بالمقسوم لعاش سعيدًا .

(4)

كانت الريح كريمة معكم هذه المرة ساعدتكم على وصول مرفأ كلانج بسلام وفقًا لخط الملاحة المرسوم لكم، كلما رست بكم الجوهرة على مرفأ تشترون ما تحتاجون من المؤن وتستأنفون السير، وجودكم بهذا المرفأ لم يستغرق سوى أسبوع واحد، انضم إليكم توم فوسمر وزكريا السعدي.

انكم في انتظار تغير موجة الرياح الموسمية التي ستقلكم إلى سنغافورة محطتكم الأخيرة، الجوهرة تحث الخطى نحو الجنوب.. تشعر أن أزمنة مختلفة من العصور الغابرة تبعث في داخلك.

الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، استمتعتم جميعًا بحفل الوداع الذي أعرب خلاله عدد كبير من المتحدثين، بمن فيهم السفير العماني لدى ماليزيا عن أطيب أمنياته للقبطان صالح الجابري وأفراد الجوهرة برحلة آمنة إلى سنغافورة..

برغم أن المسافة بين مرفأ بينانج وكلانج قصيرة ولا تستغرق سوى أسبوع

واحد، لكن السلطنة حريصة أن تكون حفلات استقبالكم ووداعكم رسميَّة، وأن يكون لديكم مرافقون ومندوبون من السفارة العمانية في كل ميناء ترسو فيه الجوهرة، وأن يكون جدولكم حافلا بالبرامج الترويحية، عناية خاصة تغدقون بها أينما اتجهتم..

منذ البدايات الأولى وتوم فوسمر الأب الروحي للجوهرة يمني نفسه بالإبحار معكم على متنها، ولاكن نتيجة لإصابته في العمود الفقري والألام الشديدة التي يعاني منها أسفل الظهر حالت دون انضمامه لطاقم الإبحار، كنت تخشى عليه من المراحل الطويلة، لطالما الحَّ عليك لكَنكَ كنتَ تؤجل رغبته إلى آخر الشوط.

بات الانضمام إلى طاقم إبحار الجوهرة أمنية كل من أسهم في ولادة الجوهرة، لم يفوِّت زكريا السعدي الفرصة التي أتيحت له للإبحار معكم.

بدأت الجوهرة مراسم المغادرة في الساعة العاشرة صباحًا، بيد أنه ونتيجة للتيارات القوية وضيق المكان، احتاجت الجوهرة إلى ساعة ونصف للخروج من الميناء والدخول إلى القناة، ثمة سفن قادمة تقترب من الجوهرة وجهًا لوجه، البحارة يرددون:

هي يا ملى هي يا الله

هي يا ملى هي يا الله

انحرفت عقدتين نحو الجنوب تفسح المجال للسفن العملاقة التي تدخل الميناء.. ولحسن الطالع انضم إليكم الملاح الماليزي الماهر سيابيل أقمر سعيد الذي لعب دورًا رائعًا في مساعدة الجوهرة في

الدخول إلى المياه المفتوحة بسلام، وتفادي الارتطام بسفن الحاويات العملاقة في مضيق ملقا الذي يعد عنق التجارة الدولية، فنصف تجارة النفط في العالم تمر عبر هذا الممر المائي الحيوي متجهة إلى الصين واليابان.

الأهمية الاقتصادية والموقع الاستراتيجي للمضيق جعل منه منطقة مستهدفة لعمليات القرصنة، التي تهدد أمن الملاحة البحرية واستقرار التعامل الاقتصادي بين الدول الثلاث المطلة على المضيق(أندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة) مما حدا بهم إلى زيادة عمليات الحراسة والتفتيش بواسطة البواخر الحربية، وذلك للحد من تنامي ظاهرة القرصنة.

الرياح خفيفة ومتغيرة والإبحار وسط ناقلات النفط العملاقة وسفن الشحن التي تربو أطوالها عن مئة متر أشبه بالمعجزة.. فُلك تُقبِل وأُخرى تُدبر.. والجوهرة بينهم غريبة فريدة عاجزة عن المرور وسط هذا الازدحام .. تطلقون صافراتكم البدائية التي تنفخ بالفم وأحيانًا تدقون على الأجراس بعنف.. لتلفتوا انتباه السفن العملاقة التي تحاصركم من كل حدب وصوب... عدد لا يحصى من البواخر.. تسير ملاصقة لكم وأخرى تتجه نحوكم .. بواخر وعبَّارات كثيرة، أبواقها وصافراتها ترسل معان مختلفة.. والجوهرة كعلامة تعجب محشورة بين هذه البواخر السامقة في ارتفاعها .. والممتدة بامتداد النظر طولا وعرضًا..

الرؤوس بأشكالها وألوانها المختلفة تطل من منافذ متعددة بالبواخر المغادرة والقادمة... وأيادٍ تلوح لكم وأخرى تشير إلى الجوهرة... الابتسامة والدهشة مرسومة على وجوه المحيطين بكم... تصلكم عبارات التحية

بلغات مختلفة معبرة عن احترامها... تقتربُ منكم إحدى البواخر... حمل أحدهم مكبر الصوت، وألقى عليكم التحية، وشرع يشيد بجمال الجوهرة، ويسألكم عن وجهتكم... كنتم تشيرون إلى علم السلطنة الذي يرفرف عاليًا مزهوًا بكم... دقائق وانزلقت الباخرة بعيدًا عنكم...

الجوهرة تبحر بيقظة وحذر نحو الجنوب عبر مضيق ملقا... الزوابع الهوائية كانت تأخذكم في مواجهة السفن العملاقة، والضباب يحجب عنكم الرؤية لولا يقظتك ـ أيها القبطان التي جنبت الجوهرة مغبة الاصطدام... الجميع يعلم أن الملاحة في المحيط الهندي تتعذر على من يجهل سر الرياح الموسمية.

استطعت ظهر هذا اليوم قطع حوالي خمسة وأربعين ميلا؛ أضواء السفن تتلألأ في دجى الليل، أفراد الطاقم يتابعون حركة الأضواء التحذيرية في الظلام بشكل مستمر، ويتخذون الإجرءات اللازمة لتفادي أي اصطدام.

ما يزال أمامك ما يربو على المئة ميل لتصل إلى سنغافورة، عملية إيقاف السفينة، وإنزال المخطاف في البحر كان امتحانًا آخر لمدى جلدكم وصبركم..

أصابكم الإرهاق في هذا الليل شديد الرطوبة بسبب انعدام الهواء وتكثيف عمليات المناوبة والمراقبة للسفن العابرة.

(5)

بينما كان زكريا السعدي شارد الذهن يتأمل الكتلة الحمراء القرمزية التي بدأ وهجها يخبو شيئًا فشيئًا، اقترب منه توم مازحًا:

- الرومانسيون يرون أن ملوحة البحر أتت من دموع العشاق، بينما الواقعيون يرون أنها عبارة عن عرق الكادحين، ما رأيك أنت يازكريا؟

أجابه:

- أشعرُ اللحظة أن هذا الكون باتساعه يغرق بهفوات البشرية وذنوبهم وأثامهم، وأن ضربات الموج وعواء الريح بجبروتها ونفحاتها ماهي إلابوح بل تسبيحة وابتهال كوني في تمجيد الله.

عاهدتَ نفسك أن تنتزع الاضطراب الجاثم في نفس زكريا وتُذيب القلق في داخله، بادرته:

- زكريا بعد قليل ستنضم إلى مجموعتك؛ لتفقد حبال الصارية وصيانتها.

يتظاهر زكريا بالتماسك ويرسم ابتسامة على وجهه والقلق يقفز من

عينيه.

تتعالى كلمات التشجيع والتحفيز من البحارة تشحذ همة زكريا...

ضربات الموج وعواء الريح تزيده قلقًا...

يهم بالصعود مع البحارة... وجهه يصفرُّ ويزرقُّ يتمايل... يصطدم مع آخرين... يلهث... العرق يتصب من آظافره وهو يزداد تشبثًا بالحبال، يشعر أنه بحاجة إلى يد كل بحار أن تمتد اليه، تنتشله من الخطر بل الموت الزاحف نحوه.

(6)

زكريا السعدي لم يكن له عهد بحياة البحر وشظف العيش كان يعاني من صعوبة بالغة في التكيف مع طبيعة الحياة على الجوهرة، كلما تفقدتَ البحارة في عمق الليل تجده مسهدًا، يشعر بالنعاس ولكنه لايستطيع النوم على أرجوحة... إنه قلق، يقول:

- سئمتُ من تشريح السكون، أشعر أني أمقتَ الصمت، أول مرة ينتابني هذا الشعور، الحياة هنا خرساء وحادة كخنجر، اشتقتُ إلى صخب الحياة: الشوارع والدروب، والبنايات، وزحمة السيارات، وصخب الأسواق، ووجه أنثى.

لقد أبدع البحارة في ابتكار ألوان التسلية للتسرية عن نفوسهم ودفع الملل والرتابة عن الرحلة... كما تجلَّى إبداع مايكل في حسن التقاطه لتناقضات الصورة المعبرة عن متضادات الحياة التي اجتمعت على متن الجوهرة.. هدوء وضجيج، وفرح وترح، ورتابة ومرح، وقلق وطمأنينة...

الساعة الرابعة... ساعة واحدة لا غير تفصلكم عن مرفأ سنغافورة...

المساء يقبل على مهل... إنكم مجبرون على الانتظار... البحارة كانوا يتحلقون حولك... شربتَ معهم آخر فنجان قهوة على سطح الجوهرة، رائحة القهوة تغلف المكان...

فرح حقيقي يلمع في العيون، وسلام عجيب يستيقظ في الأرواح... اغتسل البحارة ولبسوا ملابسًا نظيفة استعدادًا للوصول... ضجة مبهمة يصطنعها آدم البلوشي، لقد غطى نفسه برغوة الصابون وألقى بنفسه في عرض البحر... فانفجر البحارة يضحكون بمرح، ضحكاتهم وصخبهم يعلو ويعلو...

صارحك توم أنه معجبٌ بإدارتك، وبطقوس الجوهرة كل شئ له ميقاته، أما زكريا السعدي فيقول: إنه مايزال بحاجة إلى مزيد من الاكتشاف، وليت الرحلة تطول أكثر.

كان صوت الأمواج ساحرًا أشبه ما يكون بمقطوعة وجدانية موجعة، ونسيم البحر يحمل لك الكثير من الإيحاءات، نظراتك تتجاوز المدى الرحب، تشعر بحزن لأنك ستفارق الجوهرة، وتعود بعدها إلى كل شئ، وكل شئ بعد ذلك سيصبح مختلفًا ستعود سفينة الزمن من رحلة الألف عام، كل يوم على متن الجوهرة كان له دهشته ولونه المميز وطعمه الخاص، كأنك تستيقظ من حلم خرافي، وأنت على أعتاب الفراق تتأمل كل جزء في السفينة.

طالما ردد الكثيرون: أن الإبحار على متن الجوهرة ضرب من الجنون على حافة المستحيل... ومنهم مَنْ نعته بالحلم السرابي... دقائق وتنتهي الرحلة، وتخطُّ الجوهرة على أسطر الزمن أزلية المشهد...

الدرسُ التاسع

المحطة الحلم، سنغافورة

(1)

المطر المنسكب بغزارة في هذه اللحظة بالذات أشبه بالقيثارة يطفئ ظمأ الفرح في نفوسكم، طيور البحر ونوارسه تحرسكم وتحنو عليكم، تريد أن ترمي بثقل البحر وملوحته وتصافح اليابسة وتعانق النهاية، تريد أن تبكي من شدة الهيبة وجلالة الحدث.

ترنو إلى الأفق تحدث نفسك:

ـ أيتها السماء أوقفي دموعك المنهمرة، الجوهرة ترسو على خاصرة الحلم، تعانق غاياتها، وتغني للسلام أنشودتها السرمدية، والراية العمانية ترفرف على سطور الزمن.

اليوم عيد.. باللون.. بالصوت.. بالصورة عيد... فأضيفوه إلى أعيادكم، والفرح في هذه اللحظة شموس مشرقة.. سعادة النهاية تهبط على روحكم، فتتراقص الابتسامة على شفاهكم.. منذ أن غادرت ميناء السلطان قابوس وقلبك بوصلة يشير إلى آخر الشوط، برغم ثورة البحر ورهبته وفرحته..

حشود من البشر مصطفة تنظر في رجاء إلى المدى الأزرق المفتوح..

تقرأ في أشرعة الجوهرة عظمة الأساطيل البحرية العمانية وجلّ أمجاد العرب التي مرَّت...ولسان حالها يردد:

ـ أهلا جوهرة مسقط.

الجوهرة تقودكم إلى ساحة الفرح المهجور، وللفرح في هذه الحظه ألوانه الصاخبة وبصماته التي لا تُنسى... مرفأ سنغافورة يحتضن الجوهرة، ويعج باحتفائية لا مثيل لها، الفرحة السكرى تترنح بين الدموع والعيون، توافدت فرق العمل من المحطات التلفزيونية المختلفة، ونصبت عدساتها استعدادًا للحظة التاريخية، وتسجيل الحدث الكبير.

فريق متكامل من تلفزيون سلطنة عمان يقوم بإعداد مجموعة من الرسائل الاخبارية والتقارير المصورة، عن جوهرة مسقط.

تترجل من السفينة... التقت عيناك بعيني السيد بدر البوسعيدي الذي كان يرنو اليكم بعين الظافرين وابتسامة فخر تختال بين شفتيه...

تتقدم البحارة الذين يسيرون خلفك في طابور طويل، كل العمالقة يتضاءلون أمامك هذه اللحظة... زهوة الانتصار تتطاول في داخل كل واحد منكم وأنتم تتسلقون سلالم المجد.

كنتُ أتمنى أن أكون أول مستقبليك في كل مرفأ تطأه قدماك... لكنك تعودت أن تسافر وحيدًا وتعود أكثر وحدةً وأشد صمتًا، مذ عرفتك وأنت تبحث عن الغربة وتفتش عن الشقاء.

اندفع من بين الجماهير المحتشدة شاب ذو ملامح طفولية غضة.. وألقى بنفسه على صدرك، يخنقه البكاء، ويتشبث بك بقوة، كنت تتساءل في داخلك من يكون؟ لم تتبين ملامحه بعد... تهمُّ بإزاحته

عنك، عليك أن تقدم رسالة صاحب الجلالة سلطان عمان إلى رئيس جمهورية سنغافورة... رسالة المحبة والسلام التي طالما أشعرتك ببذخ البياض برغم وحشة الغياب وقسوة الحنين... تحاول أن ترفع الرجل عن صدرك... تدقق في ملامحه،تتبين الحقيقة الماثلة أمامك، تمتلأ عيناك به، وتهمس بحب:

ـ حمزة..!!

الجليد المتراكم في داخلك ذاب وانقشع فجأة، تعيد احتضانه أكثر من مرة، بكيتَ وبكى في فرح.. الموقف كان مؤثرًا فيمن شاهده.. لم تتوقع أن يكون في هذا الاحتفال الرسمي أحد أفراد عائلتك، منذ شهر هاتفني محسن البوسعيدي صديقك ورفيقك في سفينة شباب عمان، يقترح عليَّ إعداد مفاجأة لك في محطتك الأخيرة، وهي أن يكون حمزة من بين مستقبليك في سنغافورة... بداية ارتبكتُ وتلعثمتُ، وقعت في حيرة من أمري بين تلبية الطلب أو التحفظ... ولكن حمزة لم يترك لي فرصة طويلة في التردد... طار من الفرح حين أخبرته بالأمر... وقام محسن بمتابعة وزارة الخارجية واستكمال إجراءات سفر حمزة... هذا الرجل يحمل لك ودًّا كبيرًا.

أسعدني الأمر وانتشلني الحدث من حالة الحزن والانهيار التي كنتُ أعيشها، أريد أن أكون أنا وأبنائي قريبون منك... دائما ملتفون حولك!

تنتشل نفسك من بين ذراعي حمزة التي تطوقك بقوة، تتقدم بخطى ثابتة مرفوع الرأس ..تصافح رئيس جمهورية سنغافورة، تشدّ على يده بقوة، تسلمه الهدية المطوية التي لم تخنها لحظة، وهي عبارة عن قطعة

مربعة من قماش الشراع مرسوم عليها الجوهرة ومطبوع أسفلها آية قرآنية كريمة بالخط الكوفي:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾[3] تتداخل الأهازيج الشعبية العمانية مع الرقصات الفلكلورية السنغافورية، أعدد كبيرة من مراسلي القنوات الفضائية والصحفيين يتزاحمون، يلتقطون الصور، هذه اللحظة التاريخية التي طالما علقتم عليها عقارب الانتظار ورهبة الاحتمالات... تشير إلى الساعة الخامسة عصرًا في اليوم الثالث من يوليو 2010 وصلتم إلى نهاية الحلم بعد أن قضت الجوهرة ثمانية وستين يومًا في عرض البحر، بينما استغرقت الرحلة بأكملها مئة وثمانية وثلاثين يومًا، وقطعت 3580 ميلا بحريًّا أي ما يعادل 6630 كيلو مترًا مربعًا...

وهكذا انتصر حلم إنساني داعٍ إلى السلام والتعايش في انسجام.. لقد أثبتت الجوهرة أن الطريق إلى السلام مليء بالمكاره، ومحفوف بأهوال الليل، ومخاوف النهار، ولكنه يصبح سهلا إذا توافرت العزيمة والإرادة بين الشعوب، وتخلص البشر من الأنانية والأحقاد والكراهية.. لقد تعلم كل واحد منكم معاني الاحتمال، والصبر، والزهد في الحياة، والسلام مع النفس والناس، ومعانقة الوجع والألم، والتغلب على الخوف..

وستظل سلطنة عمان توصل الود بالود بين الأصدقاء والأشقاء.. تعيد شيئًا من الدفء والحرارة إلى مبادرات السلام...

وها هي جوهرة مسقط تقف بشموخ في متحف الأحياء البحرية

3ـ الآية (85)من سورة القصص.

في قلب دنيا المنتجعات بجزيرة (سنتوسا) كشاهد عيان على الأمجاد التليدة والسطوة العربية لدى الأجيال الأولى، وأن التاريخ يعيد نفسه وأن عقارب الزمن قد ترجع قرونًا إلى الوراء.. وأن الإنسان قادر على قهر الطبيعة..

ويجري الأن عرض الجوهرة على طابقين في المتحف البحري، ويقدم بتكنولوجيا تفك طلاسم غرق السفينة الأم، وماهية الكنوز التي تحملها في داخلها، ومشاهد من رحلة جوهرة مسقط الأشبه بالأسطورة، ومن المتوقع أن يصل عدد زوار السفينة إلى حوالي مليون شخص سنويًّا.

لم تعد فرحة اللقاء كما كانت وما عادت الابتسامة المرتسمة على وجهك نفسها.. شيء من الحزن يلمع وراءها، تبدد الفرح الحقيقي في الفضاء، وفقد اللقاء لثغته ودهشته وهمسته، بات كل شيء في نظري كئيبًا.

وما أن عدت إلى السلطنة حتى تم تكريمك، حصلت على وسام صاحب الجلالة... لقد كانت التفاتة رمزية من لدن السلطان، واعترافًا بمجهودك الإنساني.

كما علمتَ أن جميع من شارك معك في الجوهرة قد تم تكريمه في بلاده، مثل: بوشبداس الذي أصبح عضوًا في البرلمان الهندي بعد أن كان نجارًا يتمرغ في العوز والفاقة.. وتم تكريم جيف الموفد السنغافوري وآخرون.

النجاح لا يصل إليه الإنسان إلا على جسر ممرد من التعب،

لقد تركت جوهرة مسقط فراغًا كبيرًا في حياتكم بعد أن ألقيتم عصا الترحال، ولكنَّ الأيام القادمة ستكون بداية لحياة جديدة لكل واحد منكم، لقد فتحت الجوهرة أمامكم سماوات كثيرة.

منذ عودتك وأنت تردد في مناسبات مختلفة:

ـ هكذا هي الحياة تعطينا حلمًا وتأخذ في المقابل أعز ما نتمنى..!

هذه الرحلة كانت فرصة سانحة لك لمحاسبة الذات، وتقليب الأمر من جوانبه المختلفة، تتظاهر بالندم، وأنه لا توجد امرأة في الدنيا تستحق أن تحلَّ مكاني وأنها كانت غلطة العمر، تعودت أن تلقي بذنوبك واحدة تلو الأخرى وكأن قلبي نهر من الغفران.

أكان لا بد أن ترتطم بالحب لتعود إلي باندفاع، وتتيقن أنه لا ملجأ لك سواي، ما عرفتَ قيمتي وقدري إلا بعد أن جربت غدر غيري، أُسائلُ نفسي:

ـ الاختيارات الخطأ التي ندفع ضريبتها العمر كله مسؤولية من؟ أتراها ضحية النظرة الضيقة للحياة والأمور ونزق الشباب وقلة الخبرة.. أم هي وسيلة للهروب من مسؤولياتنا ومن واقع المجتمع والعادات والتقاليد والأعراف التي تكبلنا وتضيق الخناق علينا أينما اتجهنا..؟.

أتظاهر بتصديق كلامك، والوجع ينخر روحي، أتغابى لأحافظ على بيتي وأبنائي، برغم علمي أنه ما يزال في قلبك جمرة حب، وأن روحك ستظل تناجيها، وهواها لن يغادر قلبك، إنها الذاكرة التي لا تريد أن تنساها.. والخطيئة التي ترجو ألا تغتفر، أرى ذلك في لمحة الحزن التي

تكسو وجهك وتغلف نظراتك، ثمة أفراد مسحة الحزن تعطيهم جاذبية أكبر إلا أنتَ حزنك يشعل في روحي محرقة من الضياع، لقد عرفتُ الجرح قبلك وبسببك، كما جربتُ الحزن قبلك وبسببك.

المهم أنك عُدت إلى مأواك.. لقد أعادتك الجوهرة إليَّ بوسام سلطاني، وأنا أهديتك الكثير الكثير من الصمت والصبر، وبعودتك تغيَّر بريق العين وخفقات القلب، لقد تمردت على غرورك، واعتذرت.. نبرات صوتك المتوسلة كانت تستجدي عاطفة بدأت تخمد في قلبي، لا أدري كيف بدأت حديثك عنها- كعادتك تمتلك جرأة البدايات- ما أعرفه جيدًا أنني هممتُ بتحوير كلماتك، ولكنني تراجعتُ مباشرة، أردتُ أن أوفر على نفسي شيئًا من الوجع، وأتوقف عن تعرية المزيد من الجراح...

يااااه ماذا نقول؟ وبم تهمس؟

كأنها شكوى دفينة محبوسة في داخلك، بدأت تتحرر من أثقالها فجأة فانطلق لسانك.

وربي يكفي..!

لا أريدك أن تنبش في الرماد، وتضيَّع صفاء اللحظة ببوح واعتذار أحمق، وضعتُ أناملي على فمك أسدل الستار على ما تبقى من كلماتك..

ابتسمتَ...

لقد كانت ابتسامة نقية ودافئة كخيوط الفجر.. أشعرُ بالارتباك... أتصنعُ التماسك وفي داخلي تختلج متضادات كثيرة، ترتجفُ يدي

بشدة.. جمعتَ أصابعي بين كفكَ، لعلَّ روحي تهدأ وتسكن.. وأخذتَ تتأملني بعمق، وتدقق في ملامحي كأنك تقرأ على صفحة وجهي خربشات الحزن، والخيبة، والانكسار..

الحكاية الملتصقة بقعر ذاكرتي، حفرت أخاديد تحت عيني.. كما شوَّهت ملامحي،

ـ ما عساك قرأتَ أيضًا؟!

لقد فقدتُ نبض مشاعري، فهل في الحياة بقية من شذى حب سالف؟!!

عيناك تدمعان بغزارة... دموعك التي تُغرِقُ وجهك تذبحني... ما زلتَ كبيرًا في عيني.. كبير جدًا، وكأنه لا يوجد مثلك على الأرض رجل، احتضنتني بحب لستُ أدري بدافع الرغبة أم الحنان، أستكين في صدرك، ألتصق بك أكثر، أمتليءُ بعطرك، أوشكتُ أن أنهارَ على وقع أنفاسك، عيناي متجمدتان في اللاشيء، وأوهامي بجواري...ما زلتُ أخشى كل الاحتمالات التي تزلزل ذاكرتي .. ومضت يدك تعبث بخصلات شعري، وتداعب وجهي، كأنها تنتشل من ذاكرتي كل وجع ألمَّ بها.

يا من وهبتك كل شيء:

هل تستطيع أن تعيد لي نبض قلبي، وتبعث الحياة في أوردتي، لا أكتمك إني غفرتُ خطاياك، سامحتك من كل قلبي، لكنني لن أنسى.

لقد أشعرتني هذه التجربة بصغر الحياة، وأنه لا يوجد في الحياة شئ

ثابت.. المشاعر تتغير وتتبدل في لحظة، يطعنك في الظهر أقرب الناس إليك، ويتنصل عنك أقرب المقربين ..هكذا هم البشر مجبولون على حب الذات، وعلينا ألا نثق كثيرًا؛ لنجنب أنفسنا آلاف الصدمات، لا أحد يستحق التضحية، هانت الدنيا في عينيَّ، ولا أجد فيها ما أخشى عليه سوى أبنائي، ومن أجلهم استطعت أن ألملم جراحي، وأستعيد شيئًا من كبريائي وثقتي في نفسي.

انتهت،،،

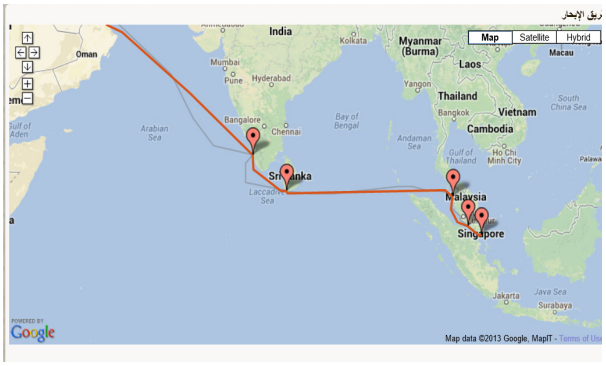

طريق الإبحار الذي سلكته جوهرة مسقط والتي انطلقت من ميناء السلطان قابوس إلى بحر عمان مرورًا ببحر العرب على طول الساحل الغربي للهند وحول سيريلانكا ثم عبرت خليج البنغال مرورًا الجزيرة بسنابج ثم بمضيق ملقا ووصولا إلى سنغافورة.